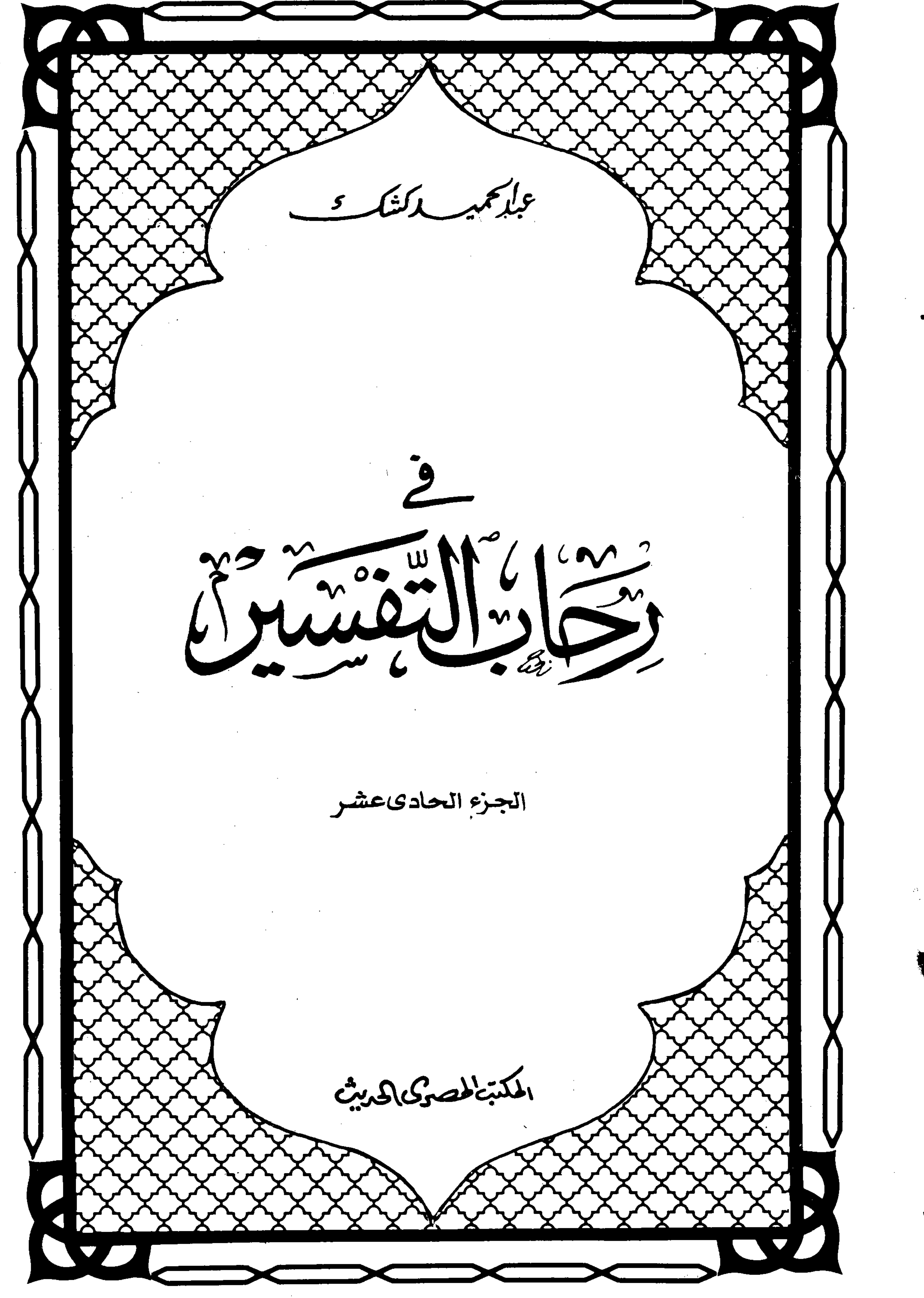

عبد الحميد كشك
في رحاب التفسير
الجزء الحادى عشر
المكتب المصرى الحديث

﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جملتها حاجة الناس إلى البيان ، فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع ، حتى لايضل فيها اجتهادهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل ذلك لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبى والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم ، وأولى القربى منهم . قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم ، وعدم انتظار النصرة من أحد ، بين أن النصر لايكون إلا من جهته تعالى فقال :

﴿ **إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾ أى أنه تعالى مالك كل موجود ، ومتولى أمره فى السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ، ومقتضى سننه فى التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله ، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ، ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة ، من ذوى الأرحام ، ولا فى غير ذلك من أوامره ونواهيه .

توبة الله تعالى

لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

المفردات : ﴿ **العسرة** ﴾ الشدة والضيق . ، ﴿ **يزيغ** ﴾ زاغ مال ، ﴿ **الرّحب** ﴾ السعة ، ﴿ **ملجأ** ﴾ لجأ إلى الحصن وغيره : لاذ إليه واعتصم به ، ﴿ **رءوف** ﴾ الرأفة : العناية بالضعيف والرفق به ﴿ **رحيم** ﴾ الرحمة : السعى فى إيصال المنفعة .

قال مجاهد : فى قوله تعالى : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم** ﴾

نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء .

قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم ، وأقفلهم من غزوتهم .

وقال ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن عتبة بن أبى عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب : (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً ، فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده . فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله عز وجل قد عوّدك فى الدعاء خيراً فادع لنا فقال : « تحب ذلك ؟ » قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء ، فأهطلت ، ثم سكنت فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر) .

وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى ﷺ هنا بقوله فى سياق هذه الغزوة ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾[1] أى إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه ، إذ غير كان خيراً منه ، وتوبة المهاجرين والأنصار وهم خلّص المؤمنين ، كانت من تثاقلهم فى الخروج ، حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم .

﴿ **الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾ أى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة فى الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفذت فيه مئونتهم من التمر ، وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ، ولا يمكن حمل شيء منه ، فكان يكتفى الواحد منهم أو الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدوّد واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة (الشحم المذاب) الزنخة المتغيرة الرائحة ، وعسرة فى الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذى فى كرشه ويبلوا به ألسنتهم – وعسرة فى الظهر (فى الإبل) حتى كان العشرة يتعقبون بعيراً واحداً – وعسرة فى الزمن إذ كان فى حرارة القيظ (شدة الحر) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى ساعة العسرة : عسرة الظَّهر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر رضى الله عنهم حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا عطش شديد ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع) الحديث كما ذكرنا سابقاً .

﴿ **من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ أى إنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ

(١) الآية ٤٣ من سورة التوبة

بعضهم عن الإيمان ، وهم الذين تخلفوا لغير علة النفاق ، وهم الذين وصفهم الله بأنهم عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم كما ذكر فيما سلف .

﴿ إنه بهم رءوف رحيم ﴾ أى إن ربهم رءوف رحيم بهم ، فلا يهملهم بأن ينزع الإيمان منهم بعد ما أبلوْا فى الله وأبلوْا مع رسول الله ، وصبروا فى البأساء والضراء .

قوله تعالى :

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن على الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر .

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة . وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان .

قال كعب : فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر فتجهز إليها رسول الله ﷺ فتجهز إليها الناس وأنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم — ويااليت أنى فعلت — ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل .

ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه يا رسول الله بُراده . والنظر فى عطفيه . فقال معاذ بن

جبل : بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت على صدقه ، فأصبح رسول الله ﷺ .

وكان إذا قدم من سفر بدأ المسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ، ألم تكن قد اشتريت ظهراً » ؟ فقلت : يا رسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ، ما كان لى عذر والله ، ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » .

فقمت وقام إلى رجال من بنى سلمة واتبعونى ، وقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى قال : ثم قلت لهم : هل لقى معى هذا أحد . قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان . قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لى فيهما أسوة .

قال فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت : أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول فى نفسى : أحرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه ، فوالله ما رد علىّ السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى

أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم .

قال : ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاء ، فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال فقلت حين قرأته : وهذا أيضاً من البلاء . قال : فتيممت به التنور فسجرته به .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر مايشاء .

قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله أن هلال شيخ ضعيف ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربك » . قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . قال : فقلت : والله لاأستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت علىّ نفسى ، وضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك . قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد ، فإذا برسول الله ﷺ جالس فى المسجد ، والناس حوله . فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر

عليك منذ ولدتك أمك » ، قال : قلت يا رسول الله أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؛ قال : « لا بل من عند الله » قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله : إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قال : فقلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت .

قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث . منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وأنى لأرجو الله أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى .

(قال) وأنزل الله تعالى ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق لرسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله تعالى : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾[١] .

قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا** ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه[٢] .

هذا حديث ثابت متفق على صحته ، رواه صاحبا الصحيح : البخارى ومسلم ، من حديث الزهرى بنحوه .

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها .

(١) الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٩ : ١٨) وفى الإيمان (٢٤) . ومسلم فى التوبة (٥٤) . والنسائى فى المساجد (٣٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٥٦) وفى (٣ : ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩) وفى (٤ : ٢٢٥) .

وكذا روى عن غير واحد من السلف فى تفسيرها .

كما رواه الأعمش عن أبى سفيان عن جابر بن عبد الله فى قوله تعالى : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار .

وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد ، وكلهم قال : مرارة بن ربيعة ، وكذا فى مسلم بن ربيعة فى بعض نسخه ، وفى بعضها مرارة بن الربيع ، وفى رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع ، كما وقع فى الصحيحين وهو الصواب .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم ، نحواً من خمسين ليلة ، بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، أى مع سعتها ، فسددت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله ، واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم ، بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

أى أصدقوا ، والزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً .

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى الى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[1] . أخرجاه فى الصحيحين .

وقال شعبة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، اقرءوا إن شئتم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ هكذا قرأها ، ثم قال : فهل تجدون لأحد فيه رخصة .

وعن عبد الله بن عمرو فى قوله : ﴿ **اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ قال مع محمد ﷺ وأصحابه .

وقال الضحاك مع أبى بكر وعمر وأصحابهما .

وقال الحسن البصرى : إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد فى الدنيا ، والكف عن أهل الملة .

---

(١) أخرجه مسلم فى البر (١٠٣،١٠٤،١٠٥) . والبخارى فى الأدب (٦٩) . وأبو داود فى الأدب (٨٠) والترمذى فى البر (٤٦) . وابن ماجه فى المقدمة (٧) وفى الدعاء (٥) . والدارمى فى الرقاق (٧) . والإمام مالك فى الكلام (١٦) . والإمام أحمد فى (١:٣،٥،٧،٨،٩،١١،٣٨٤،٤٠٥،٤٣٢) .

توجيهات وترغيب فى الجهاد

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)

المفردات : ﴿ **يرغبوا** ﴾ رغب فى الشىء : أحبه وآثره ، ورغب عنه : كرهه ، وقد جمع بينهما فى الآية .

﴿ **ظمأ** ﴾ الظمأ : شدة العطش ، ﴿ **نصب** ﴾ النصب : الإعياء والتعب ، ﴿ **مخمصة** ﴾ المخمصة : الجوع الشديد ، ﴿ **يغيظ** ﴾ الغيظ : الغضب ، ﴿ **نيلاً** ﴾ أى أسرا وقتلاً وهزيمة ، ﴿ **واديا** ﴾ الوادى : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل .

بعد أن ذكر عز اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ، أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه ، لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .

﴿ **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه** ﴾ .

أى لا ينبغى لأهل المدينة حاضرة الإسلام ، ومقر الرسول ﷺ ، ولا من حولهم من الأعراب ، كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم ، أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزو فى سبيل الله ، كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، ولا فى غيره من شئون الأمة ، ومصالح الملة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه ، فيرغبوا فى الراحة والسلامة ولا يبذلوها فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

والخلاصة : أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ ، التى لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه ، وفى ذلك نهى شديد عن عملهم ، وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته ﷺ بأنفة وحمية .

﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ .

أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع ، بسبب أن كل ما يصيبهم فى جهادهم من أذى ، وإن كان قليلاً ، كظمأ لقلة الماء ، أو نصب لبعد الشُّقة ، أو لقلة الظهر ، أو مجاعة لقلة الزاد ، ومن إيذاء للعدو وإن صغر ، كوطء أرضه الذى بعده استهانة بقوته ، فيغيظه أن تمسه أقدام المؤمنين ، أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة ، إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح ، يجزى عليه بالثواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد ، أو وطأة قدم ، أو عروض جوع أو عطش ، أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيرا كان سعيه فيه من قيام أو قعود ، أو مشى أو كلام أو نحو ذلك ، مشكوراً مثابا عليه ، وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة ، لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، ولقد أسهم النبى ﷺ لابنى عامر وقد قدما بعد تقضّى الحرب .

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أى إن الله لا يدع محسنا أحسن فى عمله ، فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه ، أن يجازيه على إحسانه ، ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل ما فعلوا ، فلم يضع لهم أجرا على عمل عملوه .

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ﴾ أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغر أو كبر ، قل أو كثر ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو رائحين ، إلا كتب لهم أجرهم على ذلك ، جزاء لهم على عملهم ، ولا يترك شىء منه أو ينسى .

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أى ليجزيهم بكتابته فى صحف أعمالهم ، كأحسن ما يجزيهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها ، وهم يقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر ، جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس ، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع الميراث ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات .

توجيهات ربانية

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **نفر** ﴾ : خرج للقتال ولولا : كلمة تفيد الحض والحث على مايدخلها عليها إذا كان مستقبلاً واللوم على تركه إذا كان ماضيا فإن كان مما يمكن تلافيه فربما أفاد الأمر به ﴿ **فرقة** ﴾ الفرقة : الجماعة الكثيرة . ﴿ **طائفة** ﴾ الطائفة : الجماعة القليلة . ﴿ **ليتفقهوا** ﴾ التفقه : تكلف الفقاهة والفهم وتجشم مشاق تحصيلها ﴿ **يحذرون** ﴾ حذره : تحرّز منه .

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والنفقة فى الدين من قِبَل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان ، وهو الركن الركين فى الدعوة إلى الإيمان ، وإقامة دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجا لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدى المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما شدّد الله على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً ففعلوا ذلك ، وبقى رسول الله ﷺ وحده ، فنزل ﴿ **وما كان المؤمنون** ﴾ الآية

﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ أى وما كان شأن المؤمنين ، ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط عن الباقين ، لا فرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ .

أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم ، كأهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ، ليتسنى لهم ، أى للمؤمنين فى جملتهم فى الدين بأن يتكلف الباقون فى المدينة الفقاهة فى الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات ، وما يكون منه ﷺ من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح المجمل بالعمل به .

ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجعلوا أهم قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما عملوا ، رجاء أن يخافوا الله ، ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه ، وبيان أسراره للناس ، لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية ، والترفع عن سواد الناس ، وكسب المال

والتشبه بالظلمة والجبارين فى ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضا .

وفى الآية إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين ، والاستعداد لتعليمهم فى مواطن الإقامة ، وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم ، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامى المراتب مالا يقل فى الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

حماية حدود الدولة الإسلامية

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة ، أرشدهم فى هذه الآية إلى طريق السداد فى هذا الباب ، وهو أن يبدءوا بقتال من يليهم ، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبى ﷺ وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ، ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ، ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق .

وكذلك فى أمر الدعوة فقد قال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[1] ثم أمر بالدعوة العامة ، وقتال من يقف فى طريقها من المشركين فقال ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾[2].

﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾

أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين ، والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾[3].

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة ، منها قلة النفقات ، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات ، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب، والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع فى الدعوة والنفقات والصدقات ، وما يدار فى المجالس من شراب ونحوه ، فكان النبى ﷺ يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ، ثم

---

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٩٢ من سورة الأنعام ، الآية ٧ من سورة الشورى .

الذى يليه ، ثم الذى يليه ، وقال للأعرابى الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك »[١] .

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ : الغلظة – مثلثة – الشدة والخشونة ، أى وليجدوا فيكم جرأة وصبرا وعنفا فى القتل والأسر ونحو ذلك ، كما قال : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾[٢] والغلظة فى زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيه من شدة الزجر ، والمنع عن القبيح .

وفى الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حينا إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة لا أن يقتضر على الغلظة فحسب ، فإن ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم ، وإنما أمروا بذلك فى القتال وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم فى الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل ، والتؤدة فى المعاملة ، ومن ثم صار ذلك من أخصى صفات المسلمين .

﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ : أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه ، وراعيتم أحكامه وسننه ، وابتعدتم عن التقصير فى أسباب النصر والغلب ، من إعداد العدة المناسبة للزمان والمكان التى عناها الله بقوله : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾[٣] ومن الثبات والصبر والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله ، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

من أحوال المنافقين

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

بعد أن ذكر سبحانه ضروباً من مخازى المنافقين ، كتخلفهم عن غزوة تبوك ، وتعلقهم لذلك بالأيمان الفاجرة ، ذكر هنا ضروبا أخرى من تلك المثالب ، كتهكمهم بالقرآن ، وتسللهم لواذا حين سماعه . وهذا آخر ما نزل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفى المؤمنين .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة (٢) . ومسلم فى الأشربة (١٠٨، ١٠٩) . والترمذى فى الأطعمة (٤٧) . وابن ماجه فى الأطعمة (٨) . والدارمى فى الأطعمة (١، ١٥) . والإمام مالك فى صفة النبى (٣٢) .

(٢) الآية ٧٣ من سورة التوبة ، الآية ٩ من سورة التحريم . (٣) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

﴿ **وإذا ما أنزلت سورة** ﴾ : أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ، ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشكّكا لهم ﴿ **أيكم زادته هذه** ﴾ السورة ﴿ **إيمانا** ﴾ أى يقينا بحقيقة القرآن والإسلام ، وصدق الرسول ﷺ ، أى أيكم زادته تصديقا جازما مقترنا بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذى أنزلت عليه .

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن فى عهد الرسول ، ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسماعه من غيره فى قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة فى العمل والقرب من الله .

قال تعالى مجيبا عن هذا السؤال ، مبينا حالهم وحال المؤمنين فقال :

﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون** ﴾

أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين ، واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة فى العمل به ، والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها ، لما يرجون من خير الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾ :

أى وأما الذين فى قلوبهم شك وارتياب دعاهم النفاق بإسرار الكفر وإظهار الإسلام ، فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ، ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم ، واستحكم فيهم ، إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى فى تأثير الأعمال فى صفات النفس ، وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال : ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين** ﴾ :

أى أو يجهلون هذا ، ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التى تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر ، والتفرقة بين الحق والباطل ، وينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ فى كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه ، وخذلان أعدائه ، ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما فى قلوبهم ، وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

﴿ **ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون** ﴾ : أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان . وانطفاء نور الفطرة ، ولله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة فى المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول ﷺ ، بين حالهم وهم فى مجلسه ﷺ حين نزولها ، واستماع تلاوته لها فقال :

﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ : أى وإذا أنزلت سورة وهم فى المجلس تسارقوا النظر ، وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين ، وتنحنى رءوسهم ، وتشاوروا فى الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار ، قائلا بعضهم لبعض : ﴿ **هل يراكم من أحد** ﴾ أى هل يراكم الرسول ﷺ أو المؤمنون إذ قمتم من المجلس .

﴿ **ثم انصرفوا** ﴾ : أى ثم انصرفوا جميعا من مجلس الوحى متسللين لواذاً ، كراهة منهم لسماعه ، وانتظارا لسنوح فرصة الغفلة عنهم ، فكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ : أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق ، والاسترشاد بآيات كتابه إلى مافى ملكوت السموات والأرض من دلائل قدرته ، وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل فى هذه واحد فى كلامه تعالى .

﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ : أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل فى معانيها ، مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل ، لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ؟ أخير هو أم شر ؟ وأنّى لمثل هؤلاء – وتلك حالهم – أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟

صاحب القلب الرحيم

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ : أى من جنسكم . ﴿ **عزيز** ﴾ : أى شاق . ﴿ **عنتم** ﴾ العنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد . ﴿ **حريص** ﴾ الحرص : شدة الرغبة فى الحصول على مفقود ، وشدة عناية بموجوده . ﴿ **رءوف** ﴾ الرأفة : الشفقة . ﴿ **رحيم** ﴾ الرحمة : الإحسان .

لما أمر الله رسوله فى هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة ، ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف ، فبين أن هذا الرسول منهم ، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم ، إلى أنه يشق عليه ضررهم ، وتعظم رغبته فى إيصال خيرى الدنيا

والآخرة إليهم ، فهو كالطبيب المشفق ، والأب الرحيم عليهم ، والطبيب الحاذق ، ربما أقدم على علاج يصعب تحمله ، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها .

كما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

قال أبى بن كعب رضى الله عنه : إن هاتين الآيتين آخر مانزل من القرآن .

لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾[1] وآخر سورة نزلت : « براءة » وعن ابن عباس : آخر آية نزلت ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾[2] وكان بين نزولها وموته ﷺ ثمانون يوما .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ :

أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم ، والآية بمعنى قوله ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ﴾[3]

ذاك أن منته على قومه أعظم ، وحجته بكتابه أنهض ، وأولى قومه به قبيلته قريش ، ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب ، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم ، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب ، فآمن العرب بدعوته مباشرة ، وآمن العجم بدعوة العرب ، والعرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه له ﷺ بالتبليغ والعمل ، وبما شاهدوا من آيات الله فى شخصه .

وقد امتن الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد ، فقال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾[4] أى وإنه لشرف لك ولهم تذكرون به فى العالم ، ويدون لكم فى بطون الكتب والدفاتر .

وإنما قاومه أكابر قومه أنفة واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دونهم ، إلى أن فى اتباعه إقراراً بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ :

أى شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه ، لأنه منكم ، فليس من الهين عليه أن تكونوا فى الدنيا أمة ذليلة بغتتها أعداؤها بالسيطرة عليها ، والتحكم فيها ، ولا أن تكونوا فى الآخرة من أصحاب النار التى وقودها الناس والحجارة .

---

(١) الآية ١٧٦ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢ من سورة الجمعة .
(٤) الآية ١٤ من سورة الزخرف .

﴿ **حريص عليكم** ﴾ : أى حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[1].

﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ : أى هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل ما يدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق فيها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ : إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى ﷺ مضريها وربيعيها و يمانيها ، يريد أن نسبه تشعب فى جميع قبائل العرب وبطونها .

﴿ **فإن تولوا فقل حسبى الله** ﴾ : أى فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبى الله فإنه يعينك عليهم ، ويكفيك أمر توليهم ، وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله ، وقد بلغت وما قصرت . ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ : أى لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافى والمعين .

﴿ **عليه توكلت** ﴾ : أى عليه وحده توكلت ، فلا أكل أمرى فيما أعجز عنه إلى غيره .

﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ : العرش مركز تدبير أمور الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾[2]، وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ، وعظمة العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإلّه الحق الذى لا ينبغى أن يعبد غيره ، ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله ، والمدبر لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم من زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره . ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ : إلى آخرها .

يريدأنه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب فى الرقاع والأكتاف والعسب إلا عنده وقد كانتا محفوظتين معروفتين لكثير ، كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى .

فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : (أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ : إلى قوله ﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى ، والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما . فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ، ولو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة) .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .

(٢) الآية ٣ من سورة يونس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر فقال عمر : لا أسالك عليها بينة أبدا ، وكذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها .

ومن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين ، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما ، ففى بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى ﷺ ، وفى بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى : (إن زيدا لم يكن يعتمد فى جمع القرآن على علمه ، ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرؤها ، فهو صريح فى أن البحث عمن كتبها فقط) .

فجملة القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع فى موضع كتابتهما ، حتى شهد من شهد أن النبى ﷺ هو الذى وضعهما فى آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أبى بن كعب ، وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبى ﷺ ، وكذا زيد بن ثابت ، وكان عدد المختلفين فى موضعهما قليلاً ، فلما كُتبتا فى المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يروا أى اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضى الله عنه .

ســورة يونس

مقدمــــة

قال صاحب البصائر :

اعلم أن هذه السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها مائة وعشر آيات عند الشاميين ، وتسع عند الباقين ، وعدد كلماتها ألف وأربعمائة وتسع وتسعون كلمة ، وحروفها سبعة آلاف وخمس وستون . وسميت سورة يونس لما فى آخرها من ذكر كشف العذاب عن قوم يونس ببركة الإيمان عند اليأس ، فى قوله : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ .

مقصود السورة

إثبات النبوة ، وبيان فساد اعتقاد الكفار فى حق النبى ﷺ والقرآن ، وذكر جزائهم على ذلك فى الدار الآخرة .

وتقدير منازل الشمس والقمر لمصالح الخلق ، وذم القانعين بالدنيا الفانية عن النعيم الباق ، ومدح أهل الإيمان فى طلب الجنان ، واستعجال الكفار بالعذاب ، وامتحان الحق تعالى خلقه باستخلافهم فى الأرض .

وذكر (عدم تعقل) الكفار كلام الله ، ونسبته إلى الافتراء والاختلاق والإشارة إلى إبطال الأصنام وعبادتها ، وبيان المنة على العباد بالنجاة من الهلاك فى البر والبحر ، وتمثيل الدنيا بنزول المطر ، وظهور ألوان النبات والأزهار .

ودعوة الخلق إلى دار السلام ، وبيان ذل الكفار فى القيامة ، ومشاهدة الخلق فى العُقْبى ما قدموه من طاعة ومعصية ، وبيان أن الحق واحد وما سواه باطل ، وإثبات البعث والقيامة بالبرهان والحجة الواضحة .

وبيان فائدة نزول القرآن ، والأمر بإظهار السرور والفرح بالصلاة والقرآن ، وتمييز أهل الولاية من أهل الجناية .

وتسلية النبى ﷺ بذكر شىء من قصة موسى ، وواقعة بنى إسرائيل مع قوم فرعون ، وذكر طمس أموال القبطيين ، ونجاة الإسرائيليين من البحر ، وهلاك أعدائهم من الفرعونيين .

ونجاة قوم يونس بإخلاص الإيمان فى وقت اليأس ، وتأكيد نبوة النبى ﷺ ، وأمره بالصبر على جفاء المشركين وأذاهم فو قوله : ﴿حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ .

المتشــابهات

قوله : ﴿ **إليه مرجعكم جميعا** ﴾ وفى هود ﴿ **إلى الله مرجعكم** ﴾ لأن مافى هذه السورة خطاب للمؤمنين والكافرين جميعاً ، يدل عليه قوله ﴿ **ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا** ﴾ الآية .

وكذلك مافى المائدة : ﴿ **مرجعكم جميعا** ﴾ لأنه خطاب للمؤمنين والكافرين ، بدليل قوله ﴿ **فيه تختلفون** ﴾ ومافى هود خطاب للكفار ، يدل عليه قوله ﴿ **وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر** ﴾ بالألف واللام لأنه إشارة إلى ما تقدم من الشر فى قوله : ﴿ **ولو يعجل الله للناس الشر** ﴾ فإن الضر والشر واحد ، وجاء الضر فى هذه السورة بالألف واللام وبالإضافة .

قوله : ﴿ **وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ بالواو لأنه معطوف على قوله : ﴿ **ظلموا** ﴾ من قوله : ﴿ **لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ ، وفى غيرها بالفاء للتعقيب .

قوله : ﴿ **فمن أظلم** ﴾ بالفاء لموافقة ما قبلها ، وقد سبق فى الأنعام قوله : ﴿ **مالا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ وسبق فى الأعراف .

قوله : ﴿ **فيما فيه يختلفون** ﴾ وفى غيرها ﴿ **فيما هم فيه** ﴾ بزيادة (هم) لأن هنا تقدم ﴿ **فاختلفوا** ﴾ فاكتفى به عن إعادة الضمير ، وفى الآية ﴿ **بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ بزيادة (لا) وتكرار (فى) لأن تكرار (لا) مع النفى كثير حسن فلما كرر (لا) كرر (فى) تحسينا للفظ ، ومثله فى سبأ فى موضعين ، والملائكة .

قوله : ﴿ **فلما أنجاهم** ﴾ بالألف لأنه وقع فى مقابلة ﴿ **أنجينا** ﴾ .

قوله : ﴿ **فأتوا بسورة مثله** ﴾ وفى هود ﴿ **بعشر سور مثله** ﴾ لأن ما فى هذه السورة تقديره : بسورة مثل سورة يونس ، فالمضاف محذوف فى السورتين ، ومافى هود إشارة إلى ما تقدمها من أول الفاتحة إلى سورة هود ، وهو عشر سور .

قوله : ﴿ **وادعوا من استطعتم** ﴾ هنا ، وكذلك فى هود ، وفى البقرة ﴿ **شهداءكم** ﴾ لأنه لما زاد فى هود ﴿ **وادعوا** ﴾ زاد فى المدعوين ، ولهذا قال فى سبحان : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن** ﴾ لأنه مقترن بقوله ﴿ **بمثل هذا القرآن** ﴾ والمراد به كله .

قوله : ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك** ﴾ بلفظ الجمع وبعده : ﴿ **ومنهم من ينظر إليك** ﴾ بلفظ المفرد ، لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبى ﷺ بخلاف النظر وكان فى المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى ، ووحّد ﴿ **ينظر** ﴾ حملاً على اللفظ ، إذ لم يكثر كثرتهم .

قوله : ﴿ **ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا** ﴾فى هذه الآية فحسب ، لأن قبله قوله ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً** ﴾ .

وقوله : ﴿ **إليه مرجعكم جميعا** ﴾ يدلان على ذلك ، فاكتفى به .

قوله : ﴿ **لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة** ﴾ فى هذه السورة فقط ، لأن التقدير فيها : لكل أمه أجل فلا يستأخرون إذا جاء أجلهم ، فكان هذا فيمن قتل ببدر ، والمعنى لم يستأخروا .

قوله : ﴿ **ألا إن الله ما فى السموات والأرض** ﴾ ذكر بلفظ ما ، لأن معنى ما ههنا المال فذكر بلفظ (ما) دون (من) ولم يكرر (ما) اكتفاء بقوله قبله ﴿ **ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض** ﴾ .

قوله : ﴿ **ألا إن الله مافى السموات ومن فى الأرض** ﴾ ذكر بلفظ (من) وكرر لأن هذه الآية نزلت فى قوم آذوا رسول الله ﷺ ، فنزل فيهم ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ فاقتضى لفظ (من) مكرر لأن المراد : من فى الأرض ههنا لكونهم فيها ، لكن قدم ذكر ﴿ **من فى السموات** ﴾ تعظيما ثمّ عطف ﴿ **من فى الأرض** ﴾ على ذلك .

قوله : ﴿ **مافى السموات ومافى الأرض** ﴾ ذكر بلفظ (ما) فكرر لأن بعض الكفار قالوا : اتخذ الله ولداً ، فقال سبحانه : له مافى السموات وله مافى الأرض ، أى اتخاذ الولد إنما يكون لدفع أذى أو جلب منفعة ، والله مالك مافى السموات ومافى الأرض (وكان)الموضع (موضع) [ما وموضع] التكرار للتأكيد والتخصيص .

قوله : ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ ومثله فى النمل . وفى البقرة ، ويوسف ، والمؤمن : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ فوافق قوله ﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ وكذلك فى النمل تقدم ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ فوافقه . وفى غيرهما جاء بلفظ التصريح . وفيها أيضا قوله : ﴿ **فى الأرض ولافى السماء** ﴾ فقدم الأرض لكون المخاطبين فيها ، ومثله فى آل عمران وإبراهيم وطه والعنكبوت ، وفيها ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ بناء على قوله ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك** ﴾ .

ومثله فى الروم : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ فحسب .

قوله : ﴿ **قالوا : اتخذ الله ولدا** ﴾ بغير واو ، لأنه اكتفى بالعائد عن الواو والعاطف .

ومثله فى البقرة على قراءة ابن عامر ! ﴿ **قالوا اتخذ الله ولدا** ﴾ قوله : ﴿ **كذبوا** ﴾ سبق .

قوله : ﴿ **فنجيناه** ﴾ سبق. ومثله فى الأنبياء والشعراء . وقوله ﴿ **ونطبع على** ﴾ قد سبق .

قوله : ﴿ **من فرعون وملأهم** ﴾ هنا فحسب بالجمع . وفى غيرها ﴿ **وملإه** ﴾ لأن الضمير فى هذه السورة يعود إلى الذرية ، وقيل : يعود إلى القوم ، وفى غيرها يعود إلى فرعون .

قوله : ﴿ **وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ وفى النمل : ﴿ **من المسلمين** ﴾ لأن قبله فى هذه السورة ﴿ **ننج المؤمنين** ﴾ فوافقه ، وفى النمل أيضا وافق ما قبله ، وهو قوله : ﴿ **فهم مسلمون** ﴾ وقد تقدم فى يونس ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ .

مناسبتها لما قبلها

ووجه مناسبتها لما قبلها أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبى ﷺ ، واختتمت بها هذه ، وأن جل تلك فى أحوال المنافقين ، وما كانوا يقولونه ، وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن ، وهذه فى أحوال الكفار وماكانوا يقولونه ، وماكانوا يفعلونه حين نزول القرآن ، وهذه فى أحوال الكفار وماكانوا يقولونه فى القرآن .

وليس التناسب بين السور سببا فى هذا الترتيب الذى بينهما فكثيراً ما نرى سورتين بينهما أقوى تناسب فى موضوع الآيات ، وقد فصل بينهما كما فصل بسورتى الهمزة واللهب وموضوعهما واحد ، وقد يجمع بينهما تارة أخرى كما نصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وسورتى المرسلات والنبأ .

ومن الحكمة فى الفصل بين القوية التناسب فى المعانى ، أنه أدنى إلى تنشيط تالى القرآن ، وأبعد به عن الملل ، وأدعى له إلى التدبر ، ولهذه الحكمة عينها تُفَرَّق مقاصد القرآن فى السورة الواحدة كالعقائد ، والاحكام العملية ، والحكم الأدبية ، والترغيب والترهيب ، والأمثال والقصص ، والعمدة فى كل ذلك التوقيف والسماع .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

المفردات : ﴿ **الكتاب** ﴾ : القرآن الكريم . ﴿ **الحكيم** ﴾ ذو الحكمة ، لاشتمال الكتاب عليها ، ﴿ **أوحينا** ﴾ الوحى : الإعلام الخفى لامرىء بما يخفى على غيره ، ﴿ **أنذر** ﴾ الإنذار : الإخبار بما فيه تخويف . ﴿ **بشر** ﴾ التبشير : الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء . ﴿ **صدق** ﴾ الصدق : يكون فى الأقوال ، ويستعمل فى الأفعال ، فيقال صدق فى القتال إذا وفاه حقه ، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك ، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل ، وجاء فى التنزيل : ﴿ مقعد صدق ﴾[1] ، ﴿ ومدخل صدق ﴾[2] ، ﴿ ومخرج صدق ﴾ ، ﴿ وقدم صدق ﴾ ويراد بالقدم هنا السابقة والتقدم والمنزلة الرفيعة ، ﴿ **ساحر** ﴾ :أى يؤثر فى القلوب ويجذب النفوس فهو جاء مجرى السحر ، ﴿ **مبين** ﴾ ظاهر .

قوله تعالى ﴿ **الر** ﴾ هذه الحروف تقرأ ساكنة غير معربة : ألف . لام ، را ، والأخير منها غير مهموز ، والحكمة فى مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها ، لأجل العناية بفهمه حتى

(١) الآية ٥٥ من سورة القمر . (٢) الآية ٨٠ من سورة الإسراء .

لا يفوته شيء مما يسمع ، فهى من وادى حروف التنبيه نحو (ألا) و (ها) الداخلة على اسم الاشارة .

وفى هذه الحروف إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب الحكيم ، وفى ذلك من التحدى ما فيه ، ومن ثم فقد جاءت الإشارة بعدها بقوله تعالى ﴿ **تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ أى التى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ولما كان هذا الكتاب الكريم المعجزة الخالدة التى تثبت صدق نبوته ﷺ ، وقد جاءت الآية بعد ذلك تنكر على الذين عجبوا من الوحى إلى خاتم الانبياء لكونه رجلا منهم .

قال جل شأنه ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾

قال الضحاك : عن ابن عباس (لما بعث الله تعالى محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، قال : فأنزل الله عز وجل ﴿ **أكان للناس عجباً** ﴾ الآية)،

وقد قالوا للأنبياء قبله مثل ما قالوه له قال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[١]. فقد قالوا ﴿ أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾[٢].

وقال نوح وهود لقومهما ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾[٣]. وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾[٤].

وجاء فى سورة إبراهيم قوله تعالى ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[٥]

وفى سورة الإسراء جاء قوله تعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولاً * وما منع الناس أو يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولاً * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾[٦].

---

(١) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٦ من سورة التغابن .
(٣) الآية ٦٣ ، ٦٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٥ من سورة ص .
(٥) الآيات ١٠-١٢ من سورة إبراهيم .
(٦) الآيات ٩٠-٩٦ من سورة الإسراء .

وقال جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين * قال رب انصرنى بما كذبون ﴾[١].

قوله تعالى ﴿ **أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ إلى سابقة فضل عند الله ، والله خير من ينجز وعدا ، ويوفى بالعهد ، فهؤلاء المؤمنون المتقون لما قدموا الأعمال الصالحة سبقتهم إلى جنات النعيم ، وهم بذلك قد وقفوا على حقائق الأسرار ، وسلكوا مدارج الأنوار ، أليس هم الذين يدعون ربهم ﴿ رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾[٢] لقد صدقوا مع الله فصدقهم الله ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم .

فنالوا بصدقهم منازل الصالحين ، ومدارج السالكين ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[٣]

فكانت أعمالهم لها حق السبق فى جزائهم الأوفى ، أصبح لهم الفردوس نزلا ، لا يبغون عن الجنات حولا .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والدار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى ﴿ **قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ هذا موقف أهل العناد فى كل حين ، وهذا منطق الباطل كما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٤].

إن الباطل معروف بالجدال والعناد ، جدل عقيم ، وعناد مستمر قال تعالى ﴿ بل لجوا فى عتو ونفور ﴾[٥] ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، ولسوف يظل الباطل يعربد فى عرصات الدنيا حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل ، ولن يضيع حق وراءه مطالب ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[٦]

لقد انشق القمر أمام أعينهم فماذا قالوا ، اسمع إلى ما قالوا ، وسلسل الدموع أسفا على هذا البهتان المبين ، والإنكار الفاجر ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى

(١) الآيات ٢٣ : ٢٦ من سورة المؤمنون
(٢) الآية ٨٠ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ٥٤،٥٥ من سورة القمر .
(٤) الآيات ٥٢–٥٥ من سورة الذاريات .
(٥) الآية ٢١ من سورة الملك .
(٦) الآية ١٧ من سورة الرعد .

النذر ﴾[1]

قال تعالى : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين * الذين هم فى خوض يلعبون * يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[2] .

من دلائل التوحيد

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى اخْتِلَٰفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

المفردات : ﴿ **الخلق** ﴾ : لغة التقدير . ﴿ **أيام** ﴾ اليوم : لغة الوقت الذى يحده حدث يحدث فيه وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التى وجدت بعد خلق الليل والنهار ﴿ **العرش** ﴾ : مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولاصفته . ﴿ **يدبر** ﴾ التدبير : النظر فى إدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود ، وتدبير الأمر ، أو القول : هو التفكير فيما وراءه وما يراد منه وينتهى إليه .

﴿ **القسط** ﴾ العدل : ﴿ **حميم** ﴾ : الحميم : الماء الشديد الحرارة . ﴿ **ضياء .. نورا** ﴾ : الضياء والنور : بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالا بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسبا من غيره ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾[3] **والسراج** : نوره من ذاته : والضياء والضوء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التى ترى فى قوسى السحاب فهو سبق أضواء وقد كشف توفى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلونه عصر التنزيل . والتقدير . جعل الشىء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان كما قال : ﴿ **وخلق كل شىء فقدره تقديرا** ﴾[4]

(١) الآيات ١–٥ من سورة القمر .
(٢) الآيات ١١–١٦ من سورة الطور .
(٣) الآية ١٦ من سورة نوح .
(٤) الآية ٢ من سورة الفرقان

وقال : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾[١] والمنازل واحدها منزل ، وهومكان النزول وهى ثمانية وعشرون منزلا معروفة لدى العرب بأسمائها .

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر آيات الكتاب ، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم ، يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وينذرهم على الكفر والمعاصى بالعقاب ، قفى على ذلك بذكر أمرين :

١ - إثبات أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهى ، يفعل ما يشاء ، وهو العليم الخبير .

٢ - إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء .

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾ .

أى إن ربكم هو الله الذى خلق العوالم السماوية التى فوقكم ، وهذه الأرض التى تعيشون على ظهرها ، فى سته أزمنة ، قد تمَّ فى كل زمن منها طور من أطوارها ، وقدرها بمقادير أرادها ، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام ، واقتضته حكمته من الإحكام ، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، ما يهديهم به لما فيه كما لهم من عبادته وشكره ، وبذلك تصلح أنفسهم ، وتطهر قلوبهم ، وتستنير أفئدتهم ، لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة فى الدنيا ، والنعيم المقيم فى الآخرة ، كما لا يستنكر أن هذا الوحى منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتدبيره ، ولا يقدر عليه سواه .

﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾

أى لا يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه . والآية بمعنى قوله سبحانه ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[٢] وقد جاء فى كتابه تعالى أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة . كما قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾[٣] ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضى له الرحمن لإيمانه وصالح عمله ، كما قال ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[٤] .

وفى هذا إيماء لدحض العقيدة التى كان يعتقدها مشركوا العرب ومقلدوهم من أهل الكتاب ، من أن الأصنام والأوثان وعبادة المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر ، ويجلب لهم النفع ، كما حكى الله عن عبدة الأصنام قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٥] .

---

(١) الآية ٣٩ من سورة يس (٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٠٩ من سورة طه .
(٤) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٣ من سورة الزمر .

وفى هذه العقيدة حجة عليهم ، إذ يقال لهم - إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى ، وهو قول عليه تعالى بغير علم ، فما بالكم تنكرون وتعجبون ان يوحى إلى من يشاء ويصطفى من عباده من يعلمهم ما يهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة ، والهادى إلى طريق الرشاد ؟!

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾

أى ذلكم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير ، والتصرف فى أمر الشفاعة ، يأذن بها لمن يشاء ، هو الله ربكم المتولى شؤونكم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ولا تشركوا معه أحداً فى شفاعة ولا غيرها ، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً ، بل هو الذى يملك ذلك وحده ، وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضر المكتسبة بالعقول والمشاعر التى سخرها لكم ، وإلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه ، فلا تطلبوا نفعاً ولا ضراً إلا بالأسباب التى سخرها لكم ، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه فادعوه فيه تعالى وحده ، يحصل لكم ما فيه ترغبون . أو يدفع عنكم ما تكرهون .

﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى أتجهلون هذا الحق الواضح ، فلا تتذكرون أن الذى خلق السموات والأرض وانفرد بتدبير هذا العالم هو الذى يجب أن يعبد ، ولا يعبد سواه ، وذلك هو مقتضى الفطرة ، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها .

وفى ذلك إيماء إلى أنه لا ينبغى أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين ، ونشد الرحال إلى من بَعُد منهم ، ونتقرب إليهم بالنذور ، ونطوف بهم كما يطوف الحاج بيت الله الحرام ، داعين متضرعين خاشعين ، نطلب منهم ما عجزنا عنه بكسبنا من دفع ضر أو جلب نفع ، وكيف نتذكر هذه الآيات وأمثالها التى تجعل العبادة خاصة به تعالى ، وما الدعاء إلا مخ العبادة وروحها ، وأجلى مظاهرها ، كما جاء فى الأثر : ﴿ الدعاء مخ العبادة ﴾[1].

ولكن بعض العلماء وبعض الناس يتأولون هذه العبادة ويسمونها توسلا واستشفاعاً ، والأسماء لا تغير من قيمة الحقائق شيئا فذلك بعينه هو ما كان يدعيه المشركون وأهل الكتاب . **﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾** .

﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ : أى إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعاً بعد الموت ، وفناء هذا العالم الذى أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد .

﴿ وعد الله حقا ﴾ : أى وعد الله ذلك وعداً حقاً لا خلف فيه .

﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ : أى إن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشئه حين التكوين ، ثم يعيده فى نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه ، وقد اتفق العلماء جميعاً ، ماديوهم وروحيوهم على ان الارض وجميع

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعاء (١) .

الأجرام السماوية قد وجدت بعد أن لم تكن ، وإن كانوا لايزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة ، والقوة المتصرفة فى أصل مادتها .

وهم جميعاً متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها فى هذا النظام الشمسى الجامع لها ، بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بساً ، فتكون هباء منبثاً ، وها هو ذا قد حصل البدء بالفعل ، والإعادة أهون من البدء فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة ، كما قال فى سورة الروم ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[1]

ومما يقرب ذلك أن علماء الطبيعة أثبتوا أن هذه الأجسام الحية فى انحلال وتجدد دائمين ، فما ينحل منها ويبخر فى الهواء ، أو يموت فى داخل الجسم ثم يخرج منه ، تحل محله مواد حية جديدة ، حتى يفنى جسد كل حيوان فى سنين قليلة ، ويتجدد غيره .

﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾

أى أنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل ، فيعطى كل عامل حقه من الثواب الذى جعله لعمله وهذا المعنى قد جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ وقضى بينهم بالقسط ﴾[3].

والعدل فى الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[4] وقال ﴿ قل أمر ربى بالقسط ﴾[5]

والجزاء بالعدل لا يمنع أن يزيدهم ربهم شيئاً من فضله ، ويضاعف لهم ، كما وعد على ذلك فى آيات أخرى منها قوله تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾[6].

وقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[7]

﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ :

أى إن الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم ، وعذاب شديد الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة إلى الموت ، كدعاء غير الله من الأوثان والأصنام ، وسائر المعاصى التى يزينها لهم الشيطان ، ويصدهم بها عن الإيمان .

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجزاء المؤمنين الصالحين ، بيان منه بأنه المقصود بالذات ، إذ هو الذى يكون به منتهى كمال الارتقاء البشرى للذين زكوا أنفسهم ، وطهروا قلوبهم ، وأخبتوا إلى ربهم ، فيلقى من عمل الصالحات من النعيم المادى ما هو خال من الشوائب التى تخالطه فى نعيم الدنيا ، ومن النعيم

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٥٤ من سورة يونس .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الحديد .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٣٠ من سورة فاطر .
(٧) الآية ٢٦ من سورة يونس

الروحى وهو **رضوان الله الأكبر** مما لا يعلم كنهه فى هذه الحياة أحد ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾[١].

وجاء فى الحديث القدسى . [أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر][٢] رواه البخارى .

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدنيسهم لأنفسهم بالكفر والخطايا ، فليس من المقاصد التى اقتضتها الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان ، ولكنها مقتضى العدل ، ومقتضى مشيئته تعالى فى ارتباط الأسباب بالمسببات ، والعلل بالمعلولات .

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ .

وهذه بعض الآيات الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى ، فهو الواحد فى ذاته لا قسيم له ، الواحد فى صفاته لا شبيه له ، الواحد فى أفعاله لا شريك له .

الشمس والبدر من أنواع حكمته ... والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجّده ... والموج كبّره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدّسه ... والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم ... والعبد ينسى وربى ليس ينساه

فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة دلائل القدرة الباهرة ، والعناية الفائقة ، والإرادة الحكيمة ، والقصد المدبر .

﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾[٣].

وما أجمل هذا النظام البديع ، والاتقان الرائع ، فى الخلق الواحد القادر المريد : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[٤]

قف خاشعاً أمام هذا الجلال فى قوله جل شأنه ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرألكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذّكرون * وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .
(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٨) وفى تفسير سورة (١:٣٢) وفى التوحيد (٣٥) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (٣١٢) وفى الجنة (٢-٥) . والترمذى فى تفسير سورة (٢:٣٢) و(١:٥٦) وابن ماجه فى الزهد (٣٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٣٤) .
(٣) الآية ٢ من سورة الرعد
(٤) الآية ٤٠ من سورة يس .
(٣٣٤:٥) .

الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾[١].

ثم قف ملياً أمام هذا الاستفهام الإنكارى فى قوله جلت حكمته : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾[٢] .

ثم قف شاكراً أمام هذا الفضل العظيم الذى تمثل فى قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[٣] .

ثم قف خاشعاً عند هذا الجلال ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾[٤] .

ثم قف مذعناً أمام تلك الحقيقة ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾[٥] .

ثم املأ قلبك بنور التوحيد وضياء الهدى وجلال التصديق أمام تلك النتيجة بعد المقدمات : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾[٦].

ما أعظمك من إله قادر ، قلت وقولك الحق ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[٧].

ما أعظمك من إله خلقت كل شىء فقدرته تقديرا ، وقلت وقولك الحق : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾[٨].

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً** ﴾ أى إن ربكم الذى خلق السموات والأرض ، هو الذى جعل الشمس مضيئة نهاراً والقمر منيراً ليلاً ، ودبر أمور معاشكم هذا التدبير البديع ، فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادكم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

﴿ **وقدره منازل** ﴾ أى وقدر سير القمر فى فلكه منازل ، ينزل كل ليلة فى واحد منها ، لا يجاوزها ولا يقصر دونها ، وهى ثمانية وعشرون ، يرى القمر فيها بالأبصار ، وليلة أوليلتان يحتجب فيهما فلا يرى .

﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ أى لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام ، لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية ، ولولا هذا النظام المشاهد

---

(١) الآيات ١٢-١٦ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٧ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٨ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٩ من سورة النحل .
(٥) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة النحل .
(٦) الآية ٢٢ من سورة النحل .
(٧) الآيات ٣٧-٤٠ من سورة يس .
(٨) الآية ١٢ من سورة الإسراء .

لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر . إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة ، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمرى ، الذى يعرفه كل أحد بالمشاهد ، ولعبادتى الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانهما فى جميع فصول السنة ، فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات ، من حارة وباردة ومعتدلة .

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾(١) وقوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾(٢)

﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ أى ما خلق الله الشمس ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها ، فتنبعث الحرارة فى جميع الأحياء ، وبها يبصر الناس جميع المبصرات ، ويقومون بأمور معايشهم وسائر شئونهم ، وما خلق القمر ذا نور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة فى سيرهم ، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور ، ما خلق ذلك إلا مقترنا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ، ونظام معايشهم ، فلا عبث فيه ولا خلل .

فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان ويعلمه البيان ، يعطيه من كمال الاستعداد ما لم يعط غيره ، ثم يتركه بعد ذلك سدى ، يموت ويفنى ولا يعود ويبعث ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، فيجزى المتقون بصالح أعمالهم ، والمشركون والظالمون المجرمون بكفرهم وجرائمهم ، كما قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ۝ مالكم كيف تحكمون ﴾(٣)

﴿ **يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى يبين الدلائل من حكم الخلق على رسوله مفصلة منوعة ، من كونية وعقلية ، لقوم يعلمون دلاله الأدلة ، ويميزون بين الحق والباطل باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق النيّرين على هذا النظام البديع لا يمكن أن يخلق الانسان سدى .

﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار** ﴾ : أى فى حدوثهما وتعاقبهما بمجىء كل منهما خلفة للآخر ، وفى طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ، وما لهما من نظام دقيق بحسب حركة الشمس اليومية والسنوية ، وفى طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون ، وعمل دنيوى ودينى .

﴿ **وما خلق الله فى السموات والأرض** ﴾ : من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، ويدخل فى ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار ، وأحوال البحار من مد وجزر ، وأحوال المعادن العجيبة فى تركيبها وأوضاعها المختلفة ، إلى نحو ذلك مما ذكر فى علم المواليد الثلاثة .

﴿ **لآيات لقوم يتقون** ﴾ : أى دلائل عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإتقان ، وفى تشريع العقائد والأحكام ، لقوم يتقون مخالفة سننه تعالى فى التكوين ، وسننه فى التشريع ،

(١) الآية ٥ من سورة الرحمن . (٢) الآية ١٢ من سورة الإسراء . (٣) الآيتان ٣٥،٣٦ من سورة القلم .

فلله سنن فى حفظ الصحة ، من خالفها مرض ، وله سننه فى تزكية الأنفس من خالفها وأفسدها بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن جوزى فى الآخرة أشد الجزاء .

جزاء الغافلين عن آيات الله

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **يرجون** ﴾ قال فى المصباح **رجوته** : أملته أو أردته قال تعالى ﴿ لا يرجون نكاحا ﴾[1] أى لا يريدونه ، ويستعمل بمعنى الخوف ، لأن الراجى يخاف ألا يدرك ما يرجوه ، وقيل الرجاء مجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء . ﴿ **لقاءنا** ﴾ اللقاء : الاستقبال والمواجهة ﴿ **اطمأنوا** ﴾ : الأطمئنان : سكون النفس إلى الشىء وارتياحها به .. ﴿ **مأواهم** ﴾ المأوى : الملجأ الذى يأوى إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج ، من مكان آمن ، أو إنسان نافع ، وقد أطلق على الجنة فى ثلاث آيات ، وعلى النار فى بضع عشرة آية .

وهكذا يبين الله حال المكذبين الغافلين عن آياته ، إنهم لا يريدون لقاء الله ولا يتوقعون ذلك ، بل إنهم يكرهون هذا اللقاء ولا يخافونه ، ﴿ فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هى المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى ﴾[2].

لقد رضى هؤلاء الغافلون عن آيات الله بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وركنوا إليها ، فما جزاؤهم ؟ فقد غفلوا عن آيات الله الكونية والتذكية ، إن جزاءهم ومأواهم وملجأهم جهنم ، وليس هذا عبثا ، إنما هو الجزاء العادل ، بسبب ما كسبوا وما اقترفوا من الذنوب والآثام ، قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾[3]

إن الإخلاد إلى الأرض هو الميل إليها باطمئنان ، وأن الذين أخلدوا إليها عاشوا فى تعب ، وأقاموا فى نصب ، فكان حالهم كحال الكلب تراه يخرج لسانه ويتنفس بصعوبة سواء حملت عليه وزجرته أو تركته فى راحة ودعة ، كذلك أهل الدنيا لو كان لأحدهم وادمن ذهب لابتغى واديين ، ولا يملأ عيونهم إلا التراب .

من أصبح وهمّه الدنيا فرقّ الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولاينال من الدنيا إلا ما كتب الله له ، ومن أصبح وهمّه الآخرة ، جمع الله عليه شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة .

(١) الآية ٦٠ من سورة النور . (٢) الآيات ٣٧-٤١ من سورة النازعات . (٣) الآيات ١٧٥-١٧٧ من سورة الأعراف .

دنياك ساعات سراع الزوال وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلاً وتشترى دنيا المنى والضلال

* * *

عش راضيا واترك دواعى الألم واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش فيها كريماً واعتبرها عدم

* * *

ويا فؤادى تلك دنيا الخيال فلاتنؤ تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فمحو الذى خطت يد الأقدار أمرٌ محال

ما أعظم أن يلجأ العبد إلى خالقه ، معتقدا أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن ميت الغد يشيع ميت اليوم ، فكيف يركن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، جل الله جلاله إذ يقول : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾(١).

وعظمت حكمته إذ يقول : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلاً نمدُ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾(٢).

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾(٣)

الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك إلى مقرك ، وكن فى الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

* * *

تزود من التقوى فإنك لا تدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

* * *

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

(١) الآيتان ١٥،١٦ من سورة هود . (٢) الآيات ١٨-٢١ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

تزود من الدنيا فإنك راحل وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

جزاء المؤمنين

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

المفردات : ﴿ **دعواهم** ﴾ الدعوى : الدعاء ، وهو للناس النداء والطلب المعتاد بينهم فى دائرة الأسباب المسخرة لهم ، ولله هو دعاؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه ، والضراعة له فيما لايقدر عليه أحد من خلقه من دفع ضر أو جلب نفع . ﴿ **سبحانك** ﴾ : أى تنزيهاً لك وتقديساً . ﴿ **تحيتهم** ﴾ التحية : التكرمة بقولهم : حيّاك الله ، أى أطال عمرك . ﴿ **سلام** ﴾ السلام : السلامة من مكروه

بعد أن ذكر الله تعالى وعيد أهل النار ، قضّى بذكر نعيم أهل الجنة ، وبيّن نور الوعد ونيران الوعيد تأتى الحكمة البالغة فى الخوف والرجاء من شأن المؤمن ، قال تعالى:﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾[١].

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[٢].

وقال جل شأنه ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[٣].

إن هؤلاء الأبرار الأنقياء ، الأطهار الأتقياء ، الأخيار الأصفياء قد قرنوا الإيمان بالعمل الصالح ، إذ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

كان المسيح ابن مريم يقول : يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم لخشية الله .

قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : يكون لهم نورا يمشون به .

(١) الآية ٩٠ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيات ٥٧-٦١ من سورة المؤمنون .
(٣) الآيات ٢٥-٢٨ من سورة الطور .

وقال ابن جريج : فى الآية يمثل له عمله فى صورة حسنة ، وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة ، وريح منتنة ، فيلزم صاحبه ويلاده حتى يقذفه فى النار .

وقوله تعالى ﴿ **تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ أى من تحت قصورهم وأشجارهم ، فهم فى ظلال الأشجار وعلى شواطىء الأنهار ، يتمنعون بدانى الثمار ، والاستمتاع بالحور الأبكار ، وأعظم من هذا كله رؤية الواحد الغفار ، إنهم الذين تكون لهم الحور العين ﴿ نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كان لنا وكنا له ﴾[(١)]. ﴿ إن من دخل الجنة ، لايفنى شبابه ولاتبلى ثيابه ، وما دخلوها إلا بفضل الله ، وما فضل الله ببعيد عن أهل كرامته وطاعته ، إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ، وأكثر ما يدخلهم النار البطن والفرج ﴾[(٢)]

فاحرص على أربع خصال صدق حديث ، وحسن خليقة ، وحفظ أمانة ، وعفة طعمه .

ولقد دلنا الصادق المعصوم على الطريق إلى الجنة فقال عليه الصلاة والسلام ﴿ عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا ... ﴾[(٣)].

والصدق هنا بأوسع معانيه يشمل الصدق مع الله ورسوله ، والصدق فى المعاملة مع الناس ، والصدق مع النفس ، وعندئذ يكسون شجاعة أدبية ، وهل نجىّ هؤلاء النفر الذين خُلّفوا إلا صدقهم مع الله ورسوله ، إننى ليملؤنى الفخار ، ويثلج صدرى أن أسوق هذا الحديث الذى يعتبر مدرسة من مدارس النبوة الطاهرة ، إنه حديث الثلاثة الذين صدقوا الله فصدقهم الله وعده ، إنه مدرسة تربوية اجتماعية ، ياليت قومى يقفون عندها ، ويعملون بدروسها ، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً .

وها أنا ذا أسوق الحديث بطوله ثم أعقب عليه بما استنبطه العلماء منه ، من الأحكام النافعة الشافية الكافية الوافية عسى الله أن يجعلنا من الصادقين ، ويدخلنا الجنة بصدقهم ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذى فى الجنة (٢٤) . والإمام أحمد فى (١٥٦:١) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٢١) . والترمذى فى الجنة (٢) . والدارمى فى الرقاق (٩٨،١٠٠) والإمام أحمد فى (٣٠٥:٢،٣١٩،٣٧٠،٤٠٧،٤١٦،٤٤٥،٤٦٢) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٦٩) . ومسلم فى البر (١٠٣،١٠٥) وأبو داود فى الأدب (٨٠) . والترمذى فى البر (٤٦) . وابن ماجه فى المقدمة (٧) . والدارمى فى الرقاق (٧) . والإمام مالك فى الكلام (١٦) . والإمام أحمد فى (٨:١،٣٨٤،٤٠٥،٤٣٢) .

(٤) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهرى ، أخــبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن عبيد الله بن كعب بن مالك – وكان قائد كعب من بنيه حين عمى – قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك : (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها إلا فى غزاة تبوك غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها وإنما خرج رسول الله (ﷺ) يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ماجمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز ، وعدوا كثيرا فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان .

قال كعب : (فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم ، وليت أنى فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لى .

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذره الله عز وجل ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟

(فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه .

فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل

ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا ؟ » فقلت : يارسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك بصدق تجد علىّ فيه إنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ، ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك » .

فقمت وقام إلىّ رجال من بنى سلمة واتبعونى ، فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال : فو الله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، قال : ثم قلت لهم : هل لقى معى هذا أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : فمن هما ؟ قالوا :مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا ، لى فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لى .

قال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا . حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى : أحرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله مارد علىّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم .

قال : ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذ أنا بنبطى من أبناط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاء ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت

حين قرأته وهذا أيضاً من البلاء . قال فتيممت به التنور فسجرته به .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك : فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك قال : فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء .

قال : فجاءت امرأة هلال بن أميه رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ولكن لا يقربك » قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شيء وإنه والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه . قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك . قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما .

وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنونى بتوبة الله يقول : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد ، والناس حوله ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قال : قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله »

قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ، وإلى رسوله . قال :

« أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال : فقلت فإني أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يارسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت .

قال : فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى .

قال : وأنزل الله تعالى ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ إلى آخر الآيات

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علىّ من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته فأهلك ، كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله تعالى ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾

قال : (وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه)[1]. حديث متفق عليه .

الأحكام المستنبطة من هذا الحديث

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث هذه الفوائد منها : إباحة الغنيمة لهذه الأمة ، وفضيلة أهل بدر والعقبة ، والمبايعة مع الإمام ، وجواز الحلف من غير استحلاف ، وتورية المقصد إذا دعت إليه ضرورة ، والتأسف على مافات من الخير ، وتمنى المتأسف عليه ، ورد الغيبة ، وهجران أهل البدعة .

وأن للإمام أن يؤدب بعض أصحابه بإمساك الكلام عنه ، وترك من تاب الزوجة ، واستحباب صلاة القادم ، ودخوله المسجد أولاً ، وتوجه الناس إليه عند قدومه ، والحكم بالظاهر وقبول المعاذير ، واستحباب البكاء على نفسه ، وأن مسارقة النظر فى الصلاة لا تبطلها ، وفضيلة الصدق .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٩:١٨) وفى الإيمان (٢٤) . ومسلم فى التوبة (٥٣) . والنسائى فى المساجد (٣٨) . والإمام أحمد فى (٢٥٦:١) وفى (٤٥٧:٣، ٤٥٨، ٤٥٩) وفى (٢٢٥:٤) .

وأن السلام ورده كلام ، وجواز دخوله بستان صديقه بدون إذنه ، وأن الكناية لا يقع بها الطلاق مالم ينوه ، وإيثار طاعة الله ورسوله على مودة الغريب .

وخدمة المرأة والاحتياط بمجانبة ما يخاف منه الوقوع فى منهى عنه ، إذ كعب لم يستأذن فى خدمته امرأته لذلك ، وجواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى إذا كان لمصلحة .

واستحباب التبشير عند تجدد النعمة واندفاع الكربة ، واجتماع الناس عند الإمام فى الأمور المهمة ، وسروره بما يسر أصحابه ، والتصدق بشيء عند ارتفاع الحزن ، والنهى عن التصدق بكل المال عند خوف عدم الصبر ، وإجازة البشير بخلعه الثوب ، وتخصيص اليمين بالنية ، وجواز العارية ، ومصافحة القادم ، والقيام له ، واستحباب سجدة الشكر : والتزام مداومة الخير الذى انتفع به .

قوله تعالى : ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

قال ابن جريج : أخبر أن قوله ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم** ﴾ قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا : سبحانك اللهم ، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله ﴿ **وتحيتهم فيها سلام** ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وروى عن أبى بن كعب مرفوعا إلى النبى ﷺ : « إن أهل الجنة إذا قالوا : سبحانك اللهم ، أتاهم ما يشتهون » .

فالكلمة إذاً علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره ، فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على التنزيه والسلام والحمد : ففى لفظه (سبحانك اللهم) تنزيه للحق جلّ جلاله عن كل نقص ، إذ هذا اللفظ لا يصح أن يُطلق على أحد إلا عليه سبحانه ، ومن ثمَّ فلكل أعجوبة (سبحان الله) . ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾[١] ، ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾[٢]، ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[٣].

وقد جاء التسبيح فى القرآن بصيغ كثيرة : جاء بصيغة الماضى كما فى قوله تعالى : ﴿ سبح لله مافى السماوات ومافى الأرض ﴾[٤] وبصيغة المضارع ﴿ يسبح لله مافى السماوات ومافى الأرض ﴾[٥].

---

(١) الآية ١ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ١٧ من سورة الروم .
(٣) الآية ٤٢ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ١ من سورة الحشر الآية ١ من سورة الصف .
(٥) الآية ١ من سورة الجمعة .

وبصيغة الأمر ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[١]. وبصيغة على المصدر ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾[٢]. وبصيغة الصفة ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾[٣].

فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار . وهو الواحد القهار .

أما السلام فتحية الله إلى نبيه : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) وتحيته تعالى إلى المؤمنين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[٤]. وتحية الملائكة لأهل الجنة ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٥].

والسلام اسم من أسمائه الحسنى ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾[٦].

والجنة دار السلام ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾[٧].

وتحية الخزنة لأهل الجنة سلام : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[٨].

وتحية الإسلام سلام ((ألالن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام))[٩].

وقد كان أول بيان ألقاه الرسول ﷺ عند قدومه المدينة : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) .

أما الحمد فحقيقته الثناء على الله بما هو أهله . فهو الحقيق بذلك لما أسداه على عباده من نعم لا تحصى وخير لا يُستقصى . ولسان أهل الجنة يلهج بالحمد عند دخولها ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾[١٠]. وكذلك لسان الملائكة ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[١١].

---

(١) الآية ١ من سورة الأعلى . (٤) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الأحزاب . (٧) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١ من سورة الإسراء . (٥) الآيتان ٢٣،٢٤ من سورة الرعد . (٨) الآية ٧٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ١٤٣ من سورة الصافات . (٦) الآية ٢٣ من سورة الحشر .
(٩) أخرجه مسلم فى الإيمان (٩٣) . والترمذى فى الأطعمة (٤٥) . وفى القيامة (٥٦،٤) وفى الأستئذان (١) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الإقامة (١٧٤) وفى الأدب (١١) . والدارمى فى الصلاة (١٥٦) وفى الاستئذان (٢٦) . والإمام أحمد فى (١:١٦٥،١٦٧) وفى (٢:٤٧٧) وفى (٤:٢٨٢،٢٩١،٢٩٣،٣٠١) وفى (٥:٤٥١) .
(١٠) الآية ٧٤ من سورة الزمر . (١١) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

وفى القرآن الكريم خمس سور افتتحها القرآن الكريم بالحمد : سورة الفاتحة ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ والأنعام ﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ والكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) وسبأ ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير) وفاطر ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

فاللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، أحمدك على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه .

حكمة بالغة

* وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ **يعجل** ﴾ تعجيل الشىء : تقديمه على أوانه المقدر له أو الموعود به ، ﴿ **استعجالهم بالخير** ﴾ : الاستعجال به : طلب التعجيل له ، والعجلة من غرائز الإنسان كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾[1] فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز أو للنجاة مما هو منه ، ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ قضاء الأجل : انتهاؤه ، ﴿ **فنذر** ﴾ : نترك ، ﴿ **طغيانهم** ﴾ الطغيان : مجاوزة الحد فى الشر من كفر وظلم وعدوان ، ﴿ **يعمهون** ﴾ العمه : التردد والتحير فى الأمر أو فى الشر ، ومرّ : أى مضى فى طريقته التى كان عليها من الكفر بربه . ﴿ **القرون** ﴾ : الأمم واحدها قرن وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ، وجاء فى الحديث الشريف : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم)[2] ﴿ خلائف ﴾ الخلائف : واحدها خليفة ، وهو من يخلف غيره فى شىء ، ﴿ **ننظر** ﴾ نشاهد ونرى .

(١) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .

(٢) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة (١) وفى الرقاق (٧) .

﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ اقتضت حكمة الله تعالى أن يعامل خلقه على أنهم يحبون تعجيل ماهم فيه مصلحة ، فلو أنه عجَّل لهم الشر عندما يستعجلونه كما يتعجلون الخير لقضى عليهم قضاء مبرما ، لقد سألوا الله تعالى فقالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[١] ولو أنصفوا لقالوا : **فاهدنا إليه** : وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾[٢] ويقول : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾[٣]. قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنمْ لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾[٤].

إن الإنسان عجول فى طلب ما يعود عليه بالنفع . فلو أن الله تعالى عجَّل له الشر الذى سأله كما يريد الإنسان تعجيل الخير لقضى الله لأجل المحتوم ، ولما ترك على ظهرها من دابة ، لكن حكمة الله اقتضت ألا يعجل كعجلة أحدنا ، بل إنه صبور يمهل ولا يهمل ، ويملى للظالم ، ويذر الذين لا يتوقعون لقاءه فى غيِّهم وطغيانهم يتحيرون ويترددون ، وفى خوضهم يلعبون .

ثم يبين لنا الله تعالى حال جماعة من الناس عرفوا الله فى الشدة ونسوه فى الرخاء فيقول سبحانه :

﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما** ﴾ :

أى دعانا على كل حال من أحواله مضطجعا على جنبه أو قاعدا أو قائما يسألنا كشف الضر عنه ، فلما كشفنا عنه ما نزل به من ضر مرَّ سادرا فى غيه ، عاصيا لأمر ربه ، طاغيا باغيا لاهيا ساهيا ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾[٥] .

﴿ **كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾. كأن لم يكن بينه وبين الله من قبل ذلك دعاء وتضرع .

والناس فى هذا المجال كثير ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق * يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٦]. ويقول تعالى : ﴿ وإذا مسَّكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه * فلما نجّاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا * أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١ من سورة المعارج .
(٣) الآية ٦ من سورة الرعد .
(٤) الآيات ٥٣–٥٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٧٥ من سورة المؤمنون .
(٦) الآيتان ٢٢،٢٣ من سورة يونس .

لكم وكيلا . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾[١] .

إلهنا ما أحلمك ، ما أرحمك ، ما أكرمك . أنت القائل وقولك الحق : ﴿ ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[٢].

ولقد بيَّن الله تعالى بعد ذلك أن الظلم هو الذى دمَّر أهل القرون السالفة قال تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا** ﴾ وذلك كقوله جلَّ شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لمَّا ظلموا ﴾[٢] وقوله : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٣] وقوله : ﴿ فكأيِّن من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٤]. وقوله : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير ﴾[٥].

الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمَّر ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم مرتعه وخيم .

جاء فى الحديث القدسى الجليل : (اشتد غضبى على من ظلم من لم يجد له ناصراً غيرى . واشتد غضبى على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره) .

وجاء فى الحديث الشريف : « من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام »

قال تعالى فى الحديث الجليل : [يا عبادى لقد حرَّمت الظلم على نفسى وجعلته محرَّما بينكم فلا تظالموا] .

ولقد أقام الله الحجة على هؤلاء المعاندين ، وقطع عليهم الأعذار بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، قال تعالى ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ : نعم وما كانوا ليؤمنوا لأنهم ﴿ استحبوا العمى على الهدى ﴾[٦] ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾[٧] ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[٨] قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرَّفنا الآيات لعلهم يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾[٩].

وليس هذا العقاب مقصورا على أمم سلفت بل إن البر لا يبلى والذنب لاينْسى والديَّان لايموت ، اعمل ما شئت كما تدين تُدان .

قال تعالى : ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ وقال فى شأن قوم لوط : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا

(١) الآيات ٦٧-٦٩ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٦) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٨) الآية ٥ من سورة الصف .
(٩) الآية ٨٣ من سورة غافر .
(١٠) الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة الأحقاف .

عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** ﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[٢].

وهكذا ليظهر مدلول علم الله القديم فينظر كيف تعملون فأنتم من خلفتم من قبلكم ليكن لكم معتبر فيما حدث لهم ، فأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا وبغى وطغى وتجبَّر فإن الله لا يغفل ولا يهمل ، بل هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

جزاء المفترين

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧)

بعد أن بدأ سبحانه السورة بذكر الكتاب الحكيم ، وإنكار المشركين الوحى على رجل منهم ، ثم أقام الحجة على الوحى والتوحيد والبعث بخلق العالم علويه وسفليه ، وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ، أعاد هنا الكلام فى شأن الكتاب نفسه ، وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول ﷺ بشأنه ، وحجته البالغة عليهم فى كونه وحياً من عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله** ﴾ .

أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذى أنزل إليك حال كونها بارزات فى أعلى أسلوب من البيان ، دالات على الحق ، ساطعات الحجة والبرهان ، قالوا لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ : ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدله** ﴾ .

(١) الآيتان ٨٢،٨٣ من سورة هود .

(٢) الآيتان ١٢٨،١٢٩ من سورة الأعراف .

أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه مالا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا ، والوعيد على عبادتها ، أو بدّله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره فى جملة ما بلغهم من سوره ، فى أسلوبها ونظمها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل ، لما يكرهونه منه من تحقير آلهتهم ، وتكفير آبائهم ، حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه ، دعوى لا يعول عليها ، وكان قصارى أمره أنه امتاز عنهم بنوع من البيان ، خفيت عليهم أسباب معرفته ، ولم يكن بوحى من الله كما يزعمه .

﴿ **قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى** ﴾ أى قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأنى ، ولا مما تجيزه لى رسالتى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ومحض رأيى ، وخالص اجتهادى .

ثم أكبر ما قبله فقال : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلى ، والاهتداء بهديه ، فإن بدل الله منه شيئا بنسخه بلغت عنه ما أراد ، وما علىّ إلا البلاغ .

ثم علل ما سبق بقوله : ﴿ **إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ أى إنى أخاف إن فعلت أى عصيان عذاب يوم عظيم الشأن ، ألا وهو يوم القيامة ، فكيف بى إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لأهوائكم .

ثم لقنه الله الجواب عن الشق الأول وهو التغيير لأهميته بقوله : ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به** ﴾ يقال : دريته ودريت به أى علمته أى قل لهم لو شاء الله ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم ، فإنما أتلوه بأمره وتنفيذ مشيئته ولو شاء الله ألا يعلمكم به بإرسالى إليكم لما أرسلنى ، ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم النافع لتهتدوا به ، وتكونوا بهدايته خلائف فى الأرض ، وهذا لن يكون بكتاب آخر كما قال ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[1] فهو قد أنزله عالما بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر من الهداية وأسباب السعادة .

﴿ **فقد لبثت فيكم عمراً من قبله** ﴾ أى فقد مكثت بين ظهرانيكم عمراً طويلا من قبله ، وهو أربعون سنة ، لم أتل عليكم سورة من مثله ، ولا آية تشبه آياته ، لا فى العلم والهداية ، ولا فى البيان والبراعة .

﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أى أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ كتابا ، ولم يلقن من أحد علما ، ولم يتقلد دينا ، ولم يمارس أساليب البيان وأفانين الكلام من شعر ونثر وخطابة وفخر وعلم وحكمة ، لا يمكنه أن يأتى بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان ، فكيف تقترحون علىّ أن آتى بقرآن غيره ، وقد كان أكثر أنبياء بنى إسرائيل قبل نبوتهم على شىء من العلم كما قال تعالى فى موسى ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾[2] وقال فى يحيى ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾

(١) الآية ٥٢ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٤ من سورة القصص . (٣) الآية ١٢ من سورة مريم .

﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته** ﴾ أى إن شر أنواع الظلم والإجرام فى البشر شيئان :

١ – افتراء الكذب على الله ، وذلك بما اقترحتموه على الإتيان بقرآن غيره .
٢ – التكذيب بآيات الله بما اجترحتموه من السيئات .

وقد نعيت عليكم الثانى منهما ، فكيف أرضى لنفسى الأول وهو شر منه ، وإن أهم أغراض رسالتى الإصلاح ، ولأجله أحتمل المشاق ، وأقبل فى سبيله كل إرهاق ، فلا فائدة لى فى هذا الإجرام .

﴿ **إنه لا يفلح المجرمون** ﴾ أى إنه لا يفوز الذين اجترموا الكفر فى الدنيا ، إذا لقوا ربهم ولاينالون الفلاح .

عبادة باطلة

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

بعد أن بين فى الآيات السالفة أنهم طلبوا منه أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله ، لأن فيه نبذا لآلهتهم وطعنا فيها ، وتسفيها لآرائهم فى عبادتها ، نعى عليهم هنا عبادة الأصنام ، وبين لهم حقارة شأنها ، إذ لا تستطيع نفعا ولا ضرا ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله ، ويجعل لها الشفاعة عنده ، وليس لديهم برهان على ما يدعون سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ : أى ويعبدون مالا يملك لهم ضرا ولا نفعا من الأصنام وغيرها ، حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده ، فهم يعبدونه ويعبدون معه غيره كما قال تعالى :

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[1].

وفى الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدعون هو اعتقادهم فيها المقدرة على الضر والنفع ، فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبده ، وضر من يشرك بعبادته غيره فى الدنيا والآخرة .

وقد دل تاريخ البشر فى كل طور من أطواره على أن كل ما عبد الانسان من دون الله من صنم أو وثن ، فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة ، كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب ، والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة أو غير المصنوعة

(١) الآية ١٠٦ من سورة يوسف .

كاللات ، وهى صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق ، عظِّمت حتى عبدت أو الأشجار كالعزى معبودة قريش .

﴿ **ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ : أى ويقولون فى سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم إيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى ـ وهؤلاء لا شفعاء عنده ـ ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ، ونطيبها بالعطر ، ونقدم لهم النذور ، ونهل لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم ، والاستغاثة بهم لأنهم يشفعون لنا عند الله ، ويقربوننا إليه زلفى ، ويدفعون بجاههم عنا البلاء ، ويعطوننا ما نطلب من النعماء .

وقد روى عكرمة أن النفر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى . فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من الله لابد أن يكون بواسطة المقربين عنده ، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله ، والحظوة عنده بأنفسهم ، لأنها مدنسة بالمعاصى .

أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصى أن يتوجه إلى الله وحده تائبا إليه ، طالبا مغفرته ورحمته .

﴿ **قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولافى الأرض** ﴾

أى قل لهم أيها الرسول مبيناً لهم كذبهم ، ومنكرا عليهم افتراءهم على ربهم : أتخبرون الله بشىء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء فى السموات من ملائكته ، وفى الأرض من خواص خلقه ، ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم ، إذ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء فإن هؤلاء لا وجود لهم عنده ، وإنكم قد اتخذتم ذلك قياسا على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم ، بدون وساطة الوزراء ، وذوى المكانة فيهم .

وبهذا ثبت بطلان الشرك فى الألوهية ، وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك فى الربوبية بادعاء وساطة المعبود فى الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ، ولا ضر من شاء ، أو كشف ضر عنه كما يعتقده عباد الأولياء من البشر إلى اليوم ، فكل ذلك للرب وحده ، ولا يعلم إلا بوحيه ، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له .

وفى هذا حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون : إن هؤلاء الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء ، فهم يضرون وينفعون ، لا كالأصنام ، وقد جهلوا أن الله يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرا ولا نفعا بعبادتهم له ، مع ما آتاه من المعجزات ، وأظن أن الأمر لا يبلغ بهم أن يجعلوا السيد البدوى ، وسيدنا الحسين ، والسيدة زينب أفضل عند الله ولا أقرب منه ، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ﴾[1].

﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ :

(١) الآية ٤٩ من سورة يونس .

أى تنزه ربنا وعلا علوا كبيرا عما يشركون به من الشفاعة والوسطاء ، وما يفترونه عليه من أن لأحد من خلقه وساطة عنده ، وشفاعة لديه ، تقرب إليه زلفى ، ففى هذا تحقير لمقام الربوبية والألوهية ، وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين .

وفى هذا إيماء إلى أن شئون الرب وسائر مافى عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحى .

كلمة سبقت من ربك

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

بعد أن أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام ، وبين سبب هذه العبادة ، ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة فى الدين ، وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه .

﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ أى إن الناس جميعاً كانوا أمة واحدة على فطرة الإسلام والتوحيد ، ثم اختلفوا فى الأديان ، وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه))[1].

فبعث الله فيهم النبين والمرسلين لهدايتهم ، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه ، ثم اختلفوا فى الكتاب أيضا بغياً بينهم ، واتباعاً لأهوائهم .

﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾ أى ولولا كلمة حق سبقت من ربك فى جعل الجزاء العام فى الآخرة ، لعجله لهم فى الدنيا بإهلاك المبطلين المعتدين ، وفى الآية وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدى إلى العدوان والشقاق ، ولا سيما الاختلاف فى الكتاب الذى أنزل لإزالة الشقاق .

موقف المعاندين

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

بعد أن حكى سبحانه عن المشركين إنكارهم للوحى إلى بشر مثلهم ، ورد عليهم مقالتهم بالحجج التى

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨٠، ٩٣) وفى تفسير (سورة ٣٠: ١) وفى القدر (٣) . ومسلم فى القدر (٢٢-٢٥) وأبو داود فى السنة (١٧) والترمذى فى القدر (٥) . والإمام مالك فى الجنائز (٥٢) . والإمام أحمد فى (٢: ٢٢٣، ٢٥٣، ٢٧٥، ٢٨٢، ٣١٥، ٣٤٧، ٣٩٣، ٤١٠، ٤٨١) وفى (٣: ٤٣٥) وفى (٤: ٢٤) .

تثبت بطلان شركهم ، وإنكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا الذى يدل فى نظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته على أنه وحى من كلام الله ، حكى عنهم فى هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال آية كونية غير القرآن ، مع ما فيه من الآيات العلمية والعقلية الدالة على النبوة والرسالة ، ثم رد على ذلك .

﴿ **ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ أى قالوا مرارا وتكرارا ولا يزالون يقولون : هلا أنزل على محمد ﷺ آيه كونيه كآيات الأنبياء ، الذين يحدثنا عنهم كنوح وشعيب وهود ، وقد جاء هذا الاقتراح هنا مجملا ، وأجاب عنه جوابا مجملا ، لأن كلا منهما سبق مفصلا فى سور أخرى ، كقوله فى سورة الفرقان ﴿ **وقالوا ما لِهذاالرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو** يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾[١].

وحكى عنهم أنهم طالبوه بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابه مطلبهم فقال : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ❁ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ❁ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ❁ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾[٢].

فلقنه الله الرد عليهم بقوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون ﴾[٣].

أى وما صرفنا عن إرسال الآيات التى اقترحوها إلا تكذيب الأولين كعاد وثمود بها ، وأنها لو أرسلت كذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال ، كما مضت بذلك سنتنا ، وقد قضينا ألا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية ، وأنه هو رحمته العامة الشاملة ، وفيهم من يؤمن ، أو يولد له من يؤمن .

وقد أتى الله رسوله ﷺ آيات علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ، ولا أمره بالتحدى بها ، بل كانت لضرورات استدعتها ، كاستجابة بعض أدعيته ﷺ كشفاء المرض ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك ، وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين ، وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل ببدر .

وعلى الجملة فحجة النبى ﷺ على نبوته هى كتابه المعجز بهدايته وعلومه روى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة مرفوعاً : (ما من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[٤].

﴿ **قل إنما الغيب لله** ﴾ : أى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من

---

(١) الآيتان ٧، ٨ من سورة الفرقان . (٢) الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (٣٣١، ٣٣١) . وابن ماجه فى الزهد (٣٦) . والإمام أحمد فى (٢: ٣٤١، ٤٥١) .

الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، ولا علم لى به ، فإن كان قدّر إنزال آية علىّ فهو يعلم وقتها وينزلها فيه ، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلى .

﴿ **فانتظروا إنى معكم من المنتظرين** ﴾ : لما يفعله الله بى وبكم ، فقد اجترأتم على جحود الآيات ، واقتراح غيرها ، والآية بمعنى قوله : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتَّبع إلا ما يوحى إلىَّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾[1] .

وقد جاء تفسير ما ينتظرونه منه فى قوله فى آخر هذه السورة ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنِّى معكم من المنتظرين ﴾[2] .

وفى الآية إنذار بما سيحل بهم من العذاب بخذلانهم ، ونصر الرسل عليهم فى الدنيا ، وماوراءها من عذاب الآخرة .

نماذج من الناس

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ **أذقنا** ﴾أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ويستعمل فى إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة ﴿ **مكر** ﴾ المكر : التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى مالا يتوقعه ، ومكره تعالى تدبيره الذى يخفى على الناس بإقامة سننه ، وإتمام حكمه فى نظام العالم ، وكله عدل وحق ، فإن ساء الناس سموه شرا ، وإن كان جزاء عدلا ﴿ **رسلنا** ﴾ الرسل هنا : الكرام الكاتبون من الملائكة ﴿ **يسيركم** ﴾ التسيير : جعل الشىء أو الشخص يسير بتسخيره تعالى أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو سفينة . ﴿ **الفلك** ﴾ : السفينة أو السفن واحد وجمع . ﴿ **طيبة** ﴾ الطيب : من كل شىء

(١) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة يونس .

ما يوافق الغرض والمنفعة يقال رزق طيب ونفس طيبة وشجرة طيبة . ﴿ **عاصف** ﴾ العاصف : الذى يعصف الأشياء ويكسرها يقال ريح عاصف وعاصفة وأحيط به هلك كما يحيط العدو بعدوه فيسد عليه سبل النجاة ﴿ **يبغون** ﴾ البغى : مازاد على القصد والاعتدال من بغى الجرح ، إذا زاد حتى ترامى إلى الفساد .

بعد أن ذكر عز اسمه أن القوم طلبوا من الرسول ﷺ آية أخرى سوى القرآن ، وذكر جوابا عن هذا بأنه مما لا يملك ذلك ، لأن هذا من الغيب الذى استأثر بعلمه ، قفى على ذلك بجواب آخر وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم ، بل يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، إذ من عاداتهم اللجاج والعناد ، فكثيراً ما جاءتهم الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله فى أفعاله ثم هم يمكرون فيها، ولا تزيدهم إلا ضلالا .

﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا هم مكر فى آياتنا** ﴾ :

أى وإذا رزقنا المشركين بالله فرجا بعد كرب ، ورخاء بعد شدة أصابتهم ، بادروا إلى المكر ، وأسرعوا بالمفاجأة به فى مقام الشكر ، فإذا كانت الرحمة مطرا أحيا الأرض وأنبت الزرع ودربه اللبن بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل ، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام ، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها عللوها بالمصادفات ، وإذا كان سببها دعاء نبى أنكروا إكرام الله له وتأييده بها ، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى ، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذى أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ ، ثم رفع عنهم بدعائه عليه الصلاة والسلام ، فمازادهم ذلك إلا كفرا وجحودا .

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

أن قريشا لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾(١) فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ، ومطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون فى آيات الله ، ويعادون رسوله ﷺ ويكذبونه (٢).

﴿ **قل الله أسرع مكراً** ﴾ : أى قل لهم : إن الله أسرع منكم مكرا ، فهو قد دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون فى إطفاء نور الإسلام ، وقد سبق فى تدبيره لأمور العالم ، وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو عليم بما تفعلون لا تخفى عليه خافية .

(١) الآيتان ١٠، ١١ من سورة الدخان .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٤ : ٢) . ومسلم فى المنافقين (٤٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٠، ٤٣١، ٤٤١) .

﴿ **إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ : أى إن الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله بإحصاء أعمال الناس وكتبها ، للحساب عليها فى الآخرة يكتبون ما تمكرون به . وفى ذلك تنبيه إلى أن ما دبروا ليس بخاف عليه تعالى وإلى أن انتقامه واقع بهم لا محالة ، وعلينا أن نعتقد بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكيما فى إحصاء أعمالنا ، لأجل أن نراقبه فيها ، فنلتزم الحق والعدل والخير ، ونجتنب أضدادها .

ثم ضرب مثلا من أبلغ أمثال القرآن ليظهر لهم ويتضح بما هم عليه فقال ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر** ﴾ : أى أنه تعالى هو الذى وهبكم القدرة على السير فى البر وسخر لكم الإبل والدواب وفى البحر بما سخر لكم من السفن التى تجرى فى البحر ، والقطر التجارية والسيارات ، وفى الهواء بالطائرات التى تسير فى الجو .

﴿ **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** ﴾ .

أى حتى إذا كنتم فى الفلك التى سخرناها لكم ، وجرت بمن فيها بسبب ريح مواتيه لهم فى جهة سيرهم ، وفرحوا بما هم فيه من راحة وتمتع بمنظره الجميل ، وهوائه العليل ، جاءت ريح شديدة قوية ، فاضطرب البحر وتموج سطحه كله ، فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحى بتأثير الريح ، واعتقدوا أنهم هالكون لا محالة بإحاطة الموج بهم ، فبينما يهبط الريح العاصف بهم فى لجج البحر ، حتى كأنهم سقطوا فى هاوية ، إذا به يثب بهم إلى أعلى ، كأنهم فى قمة الجبل الشاهق .

فإذا ما نزلت بهم نُذُر العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، ودعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ما حل بهم ، ولا يتوجهون معه إلى ولىّ ولا شفيع ، مما كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء ، وقد صمموا العزيمة على طاعته ، وقالوا : ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة لنكونن من الشاكرين ، ولا نتوجه فى تفريج كروبنا وقضاء جاحتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا إلى ولىّ ولا نبىّ.

وفى الآية إيماء إلى أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله حين الشدائد ، ولكن بعض المسلمين فى هذا العصر لا يدعون حين أشد الأوقات حرجاً إلا الميتين، ويتأول ذلك لهم بعض العلماء ويسمونه توسلا أو نحو ذلك .

قال السيد حسن الهندى فى تفسيره (فتح الرحمن) : (فيا عجبنا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ، فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ، ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون ، كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ، وأين وصل بها أهلها ، وإلى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى

انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ، ولا فى بعضه من عبادة الأصنام ، ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[1]

وقال الألوسى فى تفسيره : (وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير ، وخطب جسيم فى بر أو بحر . دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يستغيث بأحد الأئمة . ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولاترى فيهم أحداً يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله تعالى عليك قل لى : أى الفريقين أهدى سبيلا ، وأى الداعيين أقوم قيلا و إلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، واتخذت الاستعانة بغير الله للمنجاة ذريعة وخرقت سفينة الشريعة) . ا.هـ .

﴿ **فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق** ﴾ :

أى فلما نجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة فاجئوا الناس فى الأرض التى يعيشون فيها بالبغى عليهم ، والظلم ، مع الإمعان فى ذلك والإصرار عليه .

وفى قوله ﴿ **بغير الحق** ﴾ تأكيد للواقع ، وتذكير بقبحه ، وسوء حال أهله ، أو لبيان أنه بغير حق عندهم أيضاً ، بأن يكون ظلما ظاهراً لا يخفى على أحد قبحه ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ **ويقتلون النبيين بغير الحق** ﴾[2] وبعد أن حكى المثل خاطب البغاة فى أى مكان كانوا وفى أى زمان وجدوا منبها واعظاً فقال :

﴿ **يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا** ﴾ : أى : يأيها الغافلون عن أنفسكم : أما كفاكم بغيا على المستضعفين منكم اغترارا بقوتكم وكبريائكم ، إنما بغيكم فى الحقيقة على أنفسكم ، لأن عاقبة وباله عائدة إليكم ، وإنما تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الزائلة ، وهى تنقضى سراعاً ، والعقاب باق ، وأقله توبيخ الضمير والوجدان .

﴿ **ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ : أى ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل ، فننبئكم بما كنتم تعملون من البغى والظلم ، والتمتع بالباطل ، ونجازيكم به .

وفى الآية إيماء إلى أن البغى مجزى عليه فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلقوله ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ ولما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والبخارى ﴿ ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم ﴾[3] والذى رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى ثم تلا : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾، ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾[4]، ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث** على نفسه ﴾[5].]

(١) الآية ١٥٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ٦١ من سورة البقرة
(٣) أخرجه مسلم فى الزهد (٢٣) . وأبو داود فى الأدب (٤٣) . والترمذى فى القيامة (٥٧) . والإمام أحمد فى (٥:٣٦) .
(٤) الآية ٤٣ من سورة فاطر . (٥) الآية ١٠ من سورة الفتح .

وأما فى الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد .

والخـلاصة : إن البغى وهو أشنع أنواع الظلم يرجع على صاحبه لما يولد من العدواة والبغضاء بين الأفراد ولما يوقد من نيران الفتن والثورات فى الشعوب ، انظر إلى من يبغى على مثله تجده قد خلق له عدوا ، أو أعداء ، ممن يبغى عليهم ، ولاشك أن وجود الأعداء ضرب من العقوبة ، فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التى يقدرون عليها ، وإن هم لم يفعلوا ذلك فإنه يرى فى أعينهم من أنواع الحنق والغضب مالا يخفى عليه ، فيتأجج قلبه حسرة وندامة على ما فعل ، ويود أن لو لم يكن قد خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة فى النفوس .

مثل الحياة الدنيـا

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ما أروع هذا التشبيه ، وما أعظم هذا البيان ، إن فيه عبرة لمن يخشى ، فالدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، ومهما تزينت فهى زائلة ، ودوام الحال من المحال ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

إن حالها كماء نزل من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فصار زرعا أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها بهذا النبات وازيَّنت ، وأصبحت حدائق ذات بهجة ، وجنات ألفافا ، تشابكت أغصانها ، وتنوعت ألوانها وتعددت طعومها ، واختلفت روائحها الزاكية وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها ، ونسوا أن للكون إلٰها عليما قديرا سميعاً بصيرا ، وطغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وتجبروا وتكبروا على خلق الله إذا كان ذلك كذلك فليرتقبوا الخسف والمسخ ، وليتربصوا حتى يأتى الله بأمره .

قال تعالى : ﴿ **أتاها أمرنا ليلا أو نهارا** ﴾ : ليلا وهم نائمون أو نهارا وهم غافلون ، قال جلَّ شأنه : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[١].

وقال جلَّ شأنه : ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴾[٢]

(١) الآيات ٩٧-٩٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٤ من سورة الأعراف .

فإذا ما جاء بأس الله ، وحقت كلمة العذاب على الظالمين ، ونفذ القضاء كانت النهاية ، كما قال مولانا ﴿ **فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** ﴾ أى كأن لم تكن قائمة فى الوقت القريب ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، إذا قضى فلا رد لما قضى ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

فيا أيها العاقل لا تأمن للدهر ولو صفا ، ولا للمال ولو كثر ولا للسلطان ولو قرب منك :

هى الأيام لاتبقى عزيزا وساعات السرور بها قليله
إذا نشر الضياء عليك نجم وأشرق فارتقب يوما أفوله

ويا أيها العاقل لا تأمن لدنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء . واعلم بأن ميت الغد يشيع ميت اليوم .

فما من كاتب إلا ويفنى ويبقى الدهر ماكتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شىء يسرك فى القيامة أن تراه

قوله تعالى ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أى مثل ذلك البيان ، والتوضيح بالأمثال ، نفصل الآيات ونبينها لقوم زودهم الله بالعقل والنظر والفكر ، فإن التفكير فى الإسلام فريضة ، والغفلة عن آيات الله جريمة .

قال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها .أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1].

وقال جلَّ شأنه ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾[2].

دار السلام

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف .

المفردات : ﴿ **دار السلام** ﴾ : هى الجنة ، ﴿ **السلام** ﴾ : السلامة من جميع الشوائب والأكدار . ﴿ **يرهق** ﴾ رهقه : غشيه وغلب عليه حتى غطاه وحجبه ، وقوله : ﴿ **ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾ [1] أى لا تكلفنى ما يشق علىّ ويعسر . ﴿ **قتر** ﴾ القتر : الدخان الساطع من الشّواء والحطب . وكذا كل غبرة فيها سواد . ﴿ **عاصم** ﴾ العاصم : المانع

بعد ما بين سبحانه أن حال الدنيا وشأنها كماء أنزله من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، وبين أن الأرض إذا أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، كانت النهاية المحتومة وكان المصير الذى لا مفر منه ﴿ **فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** ﴾ .

بعد هذا البيان دعا الله تعالى عباده إلى الجنة دار السلام ، وتسمية الجنة بدار السلام توحى بسلامة هذه الدار من النصب والوصب والهم والحزن والغم والأذى . قال تعالى ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾[2]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[3].

ويكفى المؤمن تشريفا وتكريما أن يكون فى جوار الله ، قال تعالى فى حديثه القدسى : [ويكون جارى فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين] .

قوله تعالى ﴿ **ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ : الهداية قد تكون بمعنى الهداية والإرشاد ، كما فى قوله جلَّ شأنه لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[4].

وقد تكون الهداية بخلق قدرة الطاعة فى العبد كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾[5].

ومشيئة الله تعالى مبنية على العلم والحكمة منزهة عن العبث . قال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[6].

وقال جلَّ شأنه : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[6]. وقال سبحانه : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٤٥-٤٨ من سورة الحجر .
(٣) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٥) الآية ٥٦ من سورة القصص .
(٦) الآيات ١-١٠ من سورة الليل .
(٧) الآية ٥ من سورة الصف .

الساخرين★ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين★ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين★ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾(١).

والمراد بالصراط المستقيم ما بينه الله تعالى فى قوله ﴿ صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ﴾(٢). وفى قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾(٣).

وهل هناك أعظم استقامة من الإسلام . ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٤) ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٥) .

ولسـت أدرى سوى الإسـلام لى وطـنا
الشام فيـه ووادى النيـل سـيان
وكلمـا ذكـر اسـم الله فى بلد عـددت أرجـاءه من لـب أوطـانى

قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ هذا منطق العدل والفضل ، فالحسنى هى الجنة ، والزيادة رؤية الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾(٦).

إن الذين أحسنوا أعمالهم لله وأخلصوا له الدين ضمن الله لهم السعادة فى الدارين .

قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾(٧).

وقال جلَّ شأنه : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٨).

وقال جلَّ شأنه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٩).

وقال جلَّت حكمته : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾(١٠).

فما أعظم هذه الزيادة ! إن رؤية الله أسمى درجات السمو الروحى ، وأعظم مراتب الرقى فى نعيم الجنة قال ﷺ : [إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر](١١).

وقد حرم الله الكافرين من هذه النعمة العظمى ، قال سبحانه : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾(١٢).

---

(١) الآيات ٥٤-٥٩ من سورة الزمر . (٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (٧) الآية ٣٠ من سورة النحل .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الشورى . (٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٨) الآية ٤١ من سورة النحل .
(٣) الآية ٧ من سورة الفاتحة . (٦) الآيتان ٢٢،٢٣ من سورة القيامة . (٩) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(١٠) الآية ١٢٢ من سورة النحل . (١٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .
(١١) أخرجه البخارى فى المواقيت (١٦،٢٦) وفى الأذان (١٢٩) وفى تفسير (سورة ٥٠ :٢) وفى الرقاق (٥٢) وفى التوحيد (٢٤) . وأبو داود فى السنة (١٩) . والترمذى فى الجنة (١٦) . والإمام أحمد فى (٣: ١٦،١٧،٢٦،٢٧) .

إن المؤمنين بيض الوجوه ، أعزاء كرماء ، لا تعلو وجوههم قتر ولا ذلة ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفى نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف فى وجوههم نضرة النعيم * يُسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون ﴾(١).

قال تعالى فى حق هذا الفريق السعيد : ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ . وفى الخلود ما يوحى بالأمن والطمأنينة ويقين بالاستقرار .

يا أهل الجنة إن لكم أن تسعدوا فلا تشقوا أبدا ، ولكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، ولكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ (٢) .

يا ابن آدم : ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت،ولبست فأبليت،وتصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه لغيرك كائنا من كان .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة** ﴾ .

هذا هو منطق العدالة ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾(٣) .

قال جلَّ شأنه : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(٤). وقال عزَّ من قائل : ﴿ ولله مافى السماوات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾(٥) ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾(٦).

إن أهل الشقاء سود الوجوه تعلو وجوههم غبرة سوداء ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾(٧).

قال تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يُفعل بها فاقرة ﴾(٨).

---

(١) الآيات ١٨-٢٨ المطففين .
(٢) الآيتان ٧٢،٧٣ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء
(٤) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٥) الآية ٣١ من سورة النجم .
(٦) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ١٠٦ من سورة آل عمران .
(٨) الآيتان ٢٤،٢٥ من سورة القيامة .

وقال سبحانه : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **ما لهم من الله من عاصم** ﴾ أى ليس هناك مانع يمنع عذاب الله عنهم ، قال تعالى : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾[٢]. وقال جلّ شأنه : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[٣]. وقال سبحانه : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعُوا من الذين اتَّبعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[٤].

وقال عزّ من قائل : ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم * فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما** ﴾ : هذه صورة تقشعر منها الأبدان ، وتشيب من هولها نواصى الولدان ، صورة لأهل الشقاء لما اكتنف وجوههم من الغبرة والذلة ، كأنها غُطِّيت بقطع من الليل البهيم المظلم ، فأصبحت كظلمات بعضها فوق بعض ، وتلك الصورة القاتمة المقبضة المحزنة المخزية المؤسفة الأليمة جاءت دلالة على ظلمة قلوبهم ، وسوء أعمالهم ، فالبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ، ويارب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة .

فبادروا بالأعمال الصالحة سبعا ، هل تنتظرون إلا فقرا مُنسيا ، أو غنى مُطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مُفنداً ، أو موتا مجهزا ، أو الدجَّال . فشر غائب يُنتظر أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر .

دنيــاك ســاعات ســراع الزوال وإنمــا العقبــى خــلود المــآل
فهــل تبيــع الخــلد يا غافــلا وتشــترى دنيــا المنى والضــلال

وبعد أن جوزوا بالسيئة ، وعلت وجوههم قترة ، وخيَّم عليهم الذل والهوان ، وصاروا ما لهم من الله من عاصم ، وغطيت وجوههم بقطع من الليل من شدة ما اكتنفها من ظلمات ، يأتى الحكم عليهم بعد ذلك بالخلود فى هذا العذاب .

وفى ذلك من الآلام النفسية ما فيه بعد الآلام الجسية ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[٦] .

---

(١) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة عبس .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ١٨ من سورة غافر .
(٤) الآيتان ١٦٦، ١٦٧ من سورة البقرة .
(٥) الآيات ٩٤-١٠٤ من سورة الشعراء .
(٦) الآيتان ٧٧، ٧٨ من سورة الزخرف .

إن الحكم عليهم بالخلود يبعث فى النفوس أقصى أنواع الألم ، وأقسى ما يعتمل فى النفس من عذاب ﴿ قالوا ربَّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[١].

وقال تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٢].

وقال جلَّ شأنه : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾[٣].

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[٤].

فيا أيها العقلاء اعلموا أن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، والعاقل من أخذ من دار مفره إلى دار مقره ، وعلى كل عاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، ذاكراً الموت . فاليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[٥]

فاعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

فالسعيد من مات ولا يشقى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٦].

تزود من التقوى فإنك راحل وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

من مشاهد القيامة

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

(١) الآيات ١٠٦-١٠٨ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٢٠ من سورة السجدة . (٥) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٢) الآية ٥٦ من سورة النساء . (٤) الآيتان ١٦٨، ١٦٩ من سورة النساء . (٦) الآيات ١٢٤-١٢٦ من سورة طه .

المفردات : ﴿ **نحشرهم** ﴾ الحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد ، ﴿ **مكانكم** ﴾ : كلمة يراد بها التهديد والوعيد ، أى الزموا مكانكم . ﴿ **زيَّلْنا** ﴾ : فرقنا وميزنا . ﴿ **تبلو** ﴾ : تختبر ﴿ **ما أسلفت** ﴾ قدّمت ﴿ **وضل** ﴾ : ضاع وذهب .

وهذا مشهد من مشاهد القيامة الصورة فيه صورة حشر وجمع ، التقى الجميع فى صعيد القيامة من جن وإنس وغير ذلك من المخلوقات التى أحاط الله بها علماً ، وأحصاها عدداً قال تعالى ﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾[1] وقال جل شأنه : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾[2].

فى هذا المشهد يقول الله تبارك وتعالى للمشركين ومعبوداتهم أُلزموا مكانكم ، وذلك من باب التبكيت والتقريع لهم ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾[3].

قوله تعالى ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ أى فرقنا بين المؤمنين والمشركين ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾[4] أى انفصلوا عن المؤمنين ، أو أن يكون المراد فرقنا بين المشركين ومعبوداتهم ، ليعلم المشركون أن المعبود من دون الله لا يملك نفعا ولا ضراً ولا شفاعة ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾[5] ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين ﴾[6] ﴿ فإذا جاءت الطّامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ماسعى * وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هى المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾[7] ﴿ فإذا جاءت الصّاخّة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[8]

قال تعالى : ﴿ ولا يسئل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تئويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه * كلا إنها لظى ﴾[9] ، ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾[10]

إن الأم تلقى ولدها يوم الحشر فتقول له . يابنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثديى لك سقاء ، فهل أجد معك من حسنة يعود علىّ خيرها اليوم ؟ فيقول : يا أماه . ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . ويلقى الولد أباه فيقول : يا أبت ، لقد كنت بك برا ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقا ، فهل أجد معك من حسنة يعود علىّ خيرها اليوم ؟ فيقول : يا بنى ليتنى

---

(١) الآية ٩٩ من سورة الكهف .
(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الكهف .
(٣) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة المرسلات .
(٤) الآية ٥٩ من سورة يس .
(٥) الآية ١٩ من سورة الانفطار .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة المدثر .
(٧) الآيات ٣٤ – ٤١ من سورة النازعات .
(٨) الآيات ٣٣ – ٣٧ من سورة عبس .
(٩) الآيات ١٠ – ١٥ من سورة المعارج .
(١٠) الآيات ٩٨ – ١٠١ من سورة الأنبياء .

أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . اقرأوا إن شئتم قوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدعُ مُثْقَلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[١] .

واقرأوا قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾

لقد تبرأ الشركاء من عبادتهم إياهم ، فقد كانت عبادتهم باطلة ، بنيت على زور وبهتان ، وإنما عبدوهم بهوى النفس والشيطان ، فالمعبود بحق هو الله ، والعبادة الحقة إفراد المعبود بالعبادة ، مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، لقد تبرأ المعبود من عابده ، إذ المعبود لا يملك شيئا ، ولا يغنى فتيلا ولا نقيرا أو قطميرا ، وسبحان من قال ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[٣] .

﴿ **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم** ﴾ ولقد قال الله كلمة الفصل وجاء ذلك فى قوله تعالى ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذّبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم ﴾[٤] .

ولقد قرر هؤلاء المعبودون أنهم كانوا فى غفلة عن عبادة هؤلاء الضالين ، لأن الكون كله يشهد بضلالهم وبهتانهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ، هنالك تختبر النفوس فى ما قدمت من أعمال إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، لقد ردوا إلى الله مولاهم الحق الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، وضل عن المشركين وغاب عنهم ماكانوا يفترونه من شركاء ، فلم يغنوا عنهم شيئا .

قال تعالى : ﴿ **هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ورُدوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾

وقال جل جلاله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٥] .

---

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٢) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة فاطر .
(٤) الآيات ٥١ - ٥٥ من سورة الواقعة .
(٥) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

المالك المتصرف هو الله

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بعد أن بين جنايات المشركين على أنفسهم ، وبين فساد معتقداتهم ، وما سيلقونه من الجزاء على ما فعلوا ، قفى على ذلك بإقامة الحجج على المشركين فى إثبات التوحيد والبعث ، ثم أردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن .

﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ : أى قل أيها الرسول لهؤلاء المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله عليكم من الأمطار ومن الأرض بما ينبته من شتى النباتات ، من نجم وشجر ، تأكلون منه ، وتأكل أنعامكم .

﴿ **أم من يملك السمع والأبصار** ﴾ أى وقل لهم : من يملك ما تتمتعون به من حاستى السمع والبصر ، وأنتم بدونها لا تدرون شيئاً من أمور العالم ، وتكون الأنعام والهوام بل الشجر خيراً منكم باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها .

وخص هاتين الحاستين بالذكر ، لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية ، وكمال الحياة الإنسانية ، إذ بهما تحصيل العلوم الأولية .

من خلق هذه الحواس ووهبها للناس ، وحفظها مما يعتريها من الآفات ؟

ولاشك أن الجواب عن ذلك السؤال لاحاجة فيه إلى الفكر فإن هم تأملوا فى ذلك ازدادوا علماً وإعجاباً بإنعام الله بهما ، وإيمانا بأنه لا يقدر غيره على إيجادهما .

﴿ **ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى** ﴾ أى ومن ذا الذى بيده أمر الموت والحياة . فيخرج الحى من الميت والميت من الحى فيما تعرفون من المخلوقات ، ومالا تعرفون ، فالله هو الذى يخرج النبات من الأرض الميته ، بعد إحيائه إياها بماء المطر النازل عليها من السماء ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾(١)

وعلامة الحياة فى النبات النمو ، وفى الحيوان النمو والإحساس والحركة بالإرادة . ولم يكونوا يصفون أصول الإحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيّه ، ومن ثم مثلها إخراج الحىّ من الميت والميت من الحى ، بخروج النخلة من النواة ، والطائر من البيضة وعكسهما ، وهو تفسير صحيح عند علماء اللغة ، غير صحيح عند علماء المواليد الثلاثة ، وبه تحصل الدلالة على قدرة الله وحكمته وتدبيره ورحمته لدى المخاطبين .

وإذا كان أرباب الفنون أثبتوا أن فى أصول النبات كالبذور والنوى والبيض والمنىّ حياة ، فهم يثبتون أيضاً أن أصول الأحياء فى الأرض كلها خرجت من مادة ميتة ، فقد قالوا : إن الأرض كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ، ثم صارت ماء ، ثم نبتت اليابسة فى الماء ، ثم تكون من الماء النبات والحيوان فى أطوار شتى .

وقالوا أيضا إن الغذاء من الطعام الميت الذى يُحرق بالنار ، ويتولد منه الدم ، ومن هذا الدم يكون البيض والمنى المشتملان على مادة الحياة .

وقالوا أيضاً : إن بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرهما ، مما يفرزه البدن وتتجدد فيه مواد جديدة ، تحل محل ما خرج منها وفنى .

الخلاصـــة : إن علماء المواليد قالوا : الحى لا يخرج إلا من حى ، ولكن الحياة الأولى هى من خلق الله الحى بذاته المحيى لغيره .

﴿ **ومن يدبر الأمر** ﴾ أى ومن يلى تدبير أمر الخليقه جميعاً بما أودعه فى كل منهما من السنن ، وقدره من النظام .

﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أى فسيجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة بلا تلعثم ولا تلكؤ . بأن فاعل هذا كله هو الله رب العالم كله ومليكه. إذ لا جواب غيره ، وهم لا يجحدون ذلك ولا ينكرونه .

﴿ **فقل أفلا تتقون** ﴾ أى فقل لهم أيها الرسول : أفلا تتقون سخطه وعقابه لكم ، بشـــرككم وعبادتكم لغيره ممن لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً .

(١) الآية ٢١ من سورة الزمر .

﴿ **فذلكم الله ربكم الحق** ﴾ أى فذلكم المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المربى لكم بنعمه ، والمدبر لأموركم ، وهو الحق الثابت بذاته ، الحى المحيى لغيره ، المستحق للعبادة دون سواه .

﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ أى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال ، أى الباطل الضائع المضمحل ، فالذى يفعل تلك الأمور هو الرب الحق ، وعبادته وحده هى الهدى ، وماسواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال .

﴿ **فأنى تصرفون** ﴾ أى فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل ، وعن الهدى إلى الضلال ، مع علمكم بما كان به الله هو الرب الحق ، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دونه توحيد الألوهية ، فتتخذون مع الله آلهة أخرى .

﴿ **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا** ﴾ أى مثل ذلك الذى حقت به كلمة ربك من وجوه الربوبية والألوهية وكون الحق ليس بعده لمن تنكب عنه إلا الضلال ، حقت كلمة ربك : أى وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق ، وهو توحيد الألوهية والربوبية ، وهداية الدين الحق .

﴿ **أنهم لا يؤمنون** ﴾ أى هى أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى ، ومهما تكن الآية بينة والحجة ظاهرة قوية .

وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر ، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة ، واستغلال العقل ، فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال ، لرسوخهم فى الكفر واطمئنانهم به بالتقليد ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾ .

هذا ضرب آخر من الحجة ، أقامهُ سبحانه دليلا على توحيده ، وبطلان الإشراك به ، جاء بطريق السؤال للتوبيخ ، وإلزام الخصم ، فإن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام وفوّض الجواب إلى المسئول يكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الدلالة على الغرض .

﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله ، أو من دون الله من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها كما تزعمون ، أو الكواكب السيارة ، أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن ، من له هذا التصرف فى الكون يبدأ الخلق فى طور ، ثم إعادته فى طور آخر ؟

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

ولما كانوا لا يجيبون عن هذا السؤال كما أجابوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم للبعث والمعاد ، لقن الله رسوله الجواب فقال :

﴿ **قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ إذ القادر على بدء الخلق يكون قادرا على إعادته بالأولى ، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية ، دون الأحياء النباتية ، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات فى الأرض حين ما يصيبها ماء المطر فى فصل الشتاء ، وموته بجفافها فى فصل الصيف والخريف ، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى ، ويقرون بأن الله هو الذى يفعل البدء والإعادة ، لأنهم يشاهدون كلا منهما ، وهم لا يسلمون إلا بما يرون بأعينهم ، أو يلمسونه بأيديهم .

وقد أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى جهلهم وينبههم للتفكير فى أمرهم فقال ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أى فكيف تصرفون من الحق الذى لا محيد عنه وهو التوحيد إلى الضلال البيّن وهو الإشراك وعبادة الأصنام ، وذلك من دواعى الفطرة ، وخاصة العقل حين تفكيره فى المصير .

ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره ، إلزاما لهم عقب الإلزام الأول ، فسألهم عن شأن من شئون الربوبية المقتضى لاستحقاق الألوهية ، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية ، فقال :

﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق** ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هل من أولئك الشركاء من يهدى إلى الحق بوجه من وجوه الهداية التى بها تتم حكمة الخلق ، كما يدل على ذلك قوله ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾(١).

والهداية أنواع : هداية الغريزة والفطرة التى أودعها الله فى الإنسان والحيوان ، وهداية الحواس من سمع وبصر ونحو ذلك ، وهداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل ، وهداية الدين وهو للنوع البشرى فى جملته بمثابة العقل للأفراد ، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق ، وتسهيل سبله ، ومنع الصوارف عنه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدّعوا أن أحداً من أولئك الشركاء يهدى إلى الحق ، لا من ناحية الخلق ، ولا من ناحية التشريع ، لقن الله رسوله الجواب فقال :

﴿ **قل الله يهدى للحق** ﴾ أى قل هو الله سبحانه الذى يهدى إلى الحق دون غيره ، بما نصب من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل ، وأنزل من الكتب ، وهدى إلى النظر والتدبر ، وأعطى من الحواس .

﴿ **أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يُتّبع أم من لا يَهِدّى إلاّ أن يهدى** ﴾

قرأ يعقوب وحفص (يهدى) بكسر الهاء وتشديد الدال ، وأصله يهتدى ، أى أفمن يهدى إلى الحق

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .

ومن الله أحق أن يتبع فيما يشرعه ، أم من لايهدى غيره ولا يهتدى بنفسه إلا أن يهديه غيره . وهو الله تعالى ، إذ لا هادى غيره .

ويدخل فيمن نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء – المسيح عيسى بن مريم ، وعزير ، والملائكة ، وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه ، كما قال تعالى فى سورة الأنبياء ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾[1].

﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ أى أىّ شىء أصابكم ، وماذا حلّ بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء ، وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذى لا خالق ولا رازق ولا هادى لكم سواه ، كيف تحكمون جواز عبادتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه .

وفى هذا تعجيب من حالهم ، وسوء صنعيهم ، وقبيح فعلهم .

وبعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية ، بين حال المشركين الاعتقادية فقال :

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ أى أكثرهم لا يتبعون فى شركهم وعبادتهم لغير الله ، وإنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام . إلا ضرباً من ضروب الظن ، قد يكون ضعيفاً ، كأن يقيسوا غائباً على شاهد ، ومجهولاً على معروف ، ويقلدوا الآباء اعتقاداً منهم أنهم لا يكونون على باطل فى اعتقادهم ، ولاضلال فى أعمالهم .

وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق . والهدى ، وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لا تضر ولا تنفع ، ولكنهم يجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسوله ﷺ عناداً واستكباراً وخوفاً على زعامتهم أن تضيع سدى ، فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

ثم بين حكم الله فى الظن فقال : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾

الحق هو الثابت الذى لاريب فيه فى ثبوته وتحقيقه ، أى أن الشك لا يقوم مقام اليقين فى شىء ، ولا ينتفع به حيث يحتاج إلى اليقين .

إن الظن لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك ، كالعقائد الدينية ،ولهذا أرى أن إيمان المقلد غير صحيح[2].

﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ أى أن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها ، كتكذيبهم للرسول ﷺ مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، واتباعهم للظن كالتقليد باتباع الآباء والأجداد .

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنبياء .

(٢) وفى هذه القضية آراء كثيرة .

وفى الآية إيماء إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن ، فالعلم المفيد للحق ما كان قطعياً من كتاب أو سنة ، وهو الدين الذى لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد ، وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال : اجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، وإجتهاد أولى الأمر فى القضاء ، مع سلوك طريق الشورى حتى يتحقق العدل والمساواة فى المصالح العامة .

القرآن لاريب فيه من رب العالمين

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على أن القرآن من عنده ، وأن محمداً ﷺ عاجز كغيره عن الإتيان بمثله ، ثم أتى بالحجج على بطلان شركهم ، واتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه فى عقائدهم ، عاد إلى الكلام فى تفنيد رأيهم فى الطعن على القرآن بمقتضى هذا الظن الضعيف لدى الأكثرين منهم ، والجحود والعناد من الأقلين ، كالزعماء والمستكبرين .

قوله تعالى ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله** ﴾ أى لا يصح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه ، وينسبه إليه ، إذ لا يقدر على ذلك غيره عز وجل ، فإن ما فيه من علوم عالية ، وحكم سامية ، وتشريع عادل ، وآداب اجتماعية ، وإنباء بالغيوب الماضية والمستقبلة ، ليس فى طوق البشر ، ولا هو داخل تحت قدرته ، وفى حيز مكنته ، ولئن سلم أن بشراً فى مكنته ذلك فلن يكون إلا أرقى الحكماء والأنبياء والملائكة ، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئاً .

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبى ﷺ هو أبو جهل ، قال : إن محمداً لم يكذب على بشر قط ، أفيكذب على الله ؟

﴿ **ولكن تصديق الذى بين يديه** ﴾ أى ولكن كان تصديق الذى تقدمه من الوحى لرسل الله تعالى بالإجمال ، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم ، بدعوته إلى أصول الدين الحق : من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وصالح الأعمال ، بعد أن نسى بعض هذا بقية أتباعهم ، وضلوا عن بعض ، ولم يكن محمد النبى الأمى يعلم شيئاً من ذلك لولا الوحى من ربه .

﴿ **وتفصيل الكتاب** ﴾ أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام ، والعبر والمواعظ ، وشئون الاجتماع .

﴿ **لاريب فيه** ﴾ أى لا ينبغى لعاقل أن يرتاب فيه ، لوضوح برهانه لأنه الحق والهدى .

﴿ **من رب العالمين** ﴾ أى من وحيه ، لا افتراء من عند غيره ، **فلا اختلاف فيه** كما قال تعالى ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ﴾[1].

وبعد أن أبان أنه أجل وأعظم من أن يفترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله ، انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين الذين قالوا : إن محمداً ﷺ قد افتراه ، وفنّد مزاعمهم ، وتعجب من حالهم ، وشنيع مقالهم ، وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين. بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾

أى ما كان ينبغى أن تقولوا إن محمداً ﷺ افتراه من عند نفسه واختلقه ، إذ لو كان الأمر كما تقولون وأنه اختلقه وافتراه ، فأتوا بسورة مثله فى نظمه وأسلوبه وعلمه ، **وافتراها** فى موضوعها ، لا تلتزمون أن تكون حقا فى أخبارها ، فإن لسانه لسانكم ، وكلامه كلامكم ، وأنتم أشد مرانا وتمرساً للنثر والنظم منه ، واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله – ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا – فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2] إن كنتم صادقين فى زعمكم أنه مفترى .

وإذ قد عجزتم عن ذلك مع شدة تمرّسكم ، ولم يوجد فى كلام أولئك الذين نصبت لهم المنابر فى سوق عكاظ ، وبهم دارت رحى النظم والنثر ، وتقضت أعمارهم فى الإنشاء والإنشاد مثله ، فهو ليس من كلام البشر ، بل هو من كلام خالق القوى والقدر .

ومن البين أنه ما كان لعاقل مثله – ﷺ – أن يتحداهم هذا التحدى لو لم يكن موقناً أن الإنس والجن لايستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى جملته ولا سورة مثله ، إذ لو كان هو الذى أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذكاؤه يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به .

إذ العاقل الفطن يعلم أن مايمكنه من الأمر قد يمكن غيره ، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه .

والخلاصة : أن محمدا ﷺ كان على يقين من عند ربه ، وأنه ﷺ كغيره لا يقدر على الإيتان بمثله .

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه فى القرآن بتحديه لهم ، إلى إظهار بطلان قولهم هذا ببيان أن كلامهم ناشىء من عدم علمهم بحقيقة أمره ، واختبار حاله ، فقال :

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء . (٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ أى بل هم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه ، ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على أنه كما وصف آنفا ، ومن قبل أن يعلموا أنه ليس مما يمكن أن يؤتى بمثله

﴿ **ولما يأتهم تأويله** ﴾ أى ولم يأتهم إلى الآن ما يئول إليه ويكون مصداقا له بالفعل ، ويقع ما أخبر به من الأمور المستقبلة .

وخلاصة ذلك – أنهم على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب – قد أسرعوا فى تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره ، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به – وفى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع حصوله – شناعة وقصر نظر لاتخفى على عاقل ، وفيه دليل على أنهم مقلدون .

﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى مثل هذا التكذيب بلا تدبر ولا تأمل كذب الذين من قبلهم من مشركى الأمم رسلهم ، بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذى أوعدهم به .

﴿ **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ أى فانظر أيها الرسول الكريم كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسلهم ، لتعلم مصير من ظلموا أنفسهم من بعدهم ، وهذه العاقبة هى التى بينها الله فى قوله : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1]

وقد أنذر الله قوم محمد ﷺ بمثل ما نزل بالأمم قبلهم فى الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة ، كما أنذرهم عذاب الآخرة ، وكذبه المعاندون المقلدون فى كل ذلك ظناً منهم أنه لا يقع .

موقفه صلى الله عليه وسلم
من المكذبين

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ

---

(١) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به وربك أعلم بالمفسدين** ﴾

هذا إخبار منه – جلَّ فى علاه – بأن من الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ من يؤمن بهذا القرآن العظيم ، ويصدق بما فيه تصديقاً جازما لالبس فيه ولاغموض ، كما أن منهم من لايؤمن به ، ويدعى أنه مفترى من دون الله ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالمفسدين المكذبين الذين عشش الشيطان فى رءوسهم فباض فيها الإلحاد وفرَّخ فيها الزندقة . والذين قال فيهم : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1] .

وقال فيهم ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكّرت أبصارنا بل

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

نحن قوم مسحورين ﴾[1]. وقال فيهم : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[2].

ولقد بيَّن الله تعالى لرسوله الكريم كيف يقف من هؤلاء المكذبين فقال ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾

وهذا منطق الحق المبين بلسان اليقين ، إذ الحق أبلج ، والباطل لجلج ، ومهما عربد الباطل فى عرصات الأرض فلسوف يدفعه الحق فإذا هو زاهق ، ولن يضر السحاب نبح الكلاب . والناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر ، فإن كذبك هؤلاء المعاندون فقل لهم ﴿ **لى عملى ولكم عملكم** ﴾ ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[3]. ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[4]. ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[5].

﴿ **أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾ ذلك كقوله تعالى : ﴿ قل ياأيها الكافرون * لا أعبد ماتعبدون * ولاأنتم عابدون ماأعبد ﴾[6] إلى آخرها . وكقول الخليل إبراهيم ومن معه لقومهم المشركين ﴿ إنا برآء منكم ومماتعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[7].

قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون * إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ :

فى هذه الآيات يبين جلَّت حكمته أن من هؤلاء المكذبين من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم من آى الذكر الحكيم ، والقرآن العظيم ، والأحاديث التى تبين الأحكام ، وتصحح المفاهيم لكنهم إذا استمعوا لا يستمعون بقصد الاستجابة والعمل ، إنما تسمع الآذان وبينها وبين القلوب حجاب ، قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾[8]

ولقد أدَّب الله عباده المؤمنين بأدب الاستماع فقال : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم

---

(١) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .
(٣) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٤) الآية ٣٨ من سورة المدثر .
(٥) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٦) الآيات ١ - ٣ من سورة الكافرون .
(٧) الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٨) الآية ١٦ من سورة محمد .

ترحمون ﴾[١]. ونهاهم أن يتشبهوا بهؤلاء الذين إذا أسمعوا لايستجيبون فقال سبحانه ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولاتولوا عنه وأنتم تسمعون * ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ﴾[٢].

وقد بين الله حال هؤلاء المعرضين فى قوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[٣].

﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٤]

﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون ﴾

إذ كيف يتأتى لبشر أن يسمع الأصم وأن يهدى المجنون ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ﴾[٥]، إن عليك إلا البلاغ المبين .

ومنهم من ينظر إليك وإلى وجهك الوضَّاء ، وما أنت عليه من خلق عظيم ، وما حباك الله به من منح ودرجات وحسن سمت واستقامة سلوك ، ومع ذلك لايهتدى ولايقتدى ، بل ينظر نظر سخرية واستهزاء . قال تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا . أهذاالذىبعث الله رسولا ﴾[٦].

وفى آية أخرى ﴿ وإذ رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾[٧].

فلايكن فى صدرك حرج مما يقولون ﴿ **أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون** ﴾ ﴿ إنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[٨]

لقد بلَّغت وأديت ونصحت . ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾[٩].

وقد بعثت بالحنيفية السمحة ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك ، ولن يقبضك الله إليه حتى يقيم بك الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صُماً ، وقلوبا غلفا

﴿ **إن الله لايظلم الناس شيئا** ﴾ إذ هو الحكم العدل ، حرَّم الظلم على نفسه كما حرَّمه على عباده ، جاء فى الحديث عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ [يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا] إلى أن قال فى آخره « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[١٠]رواه مسلم

---

(١) الآية ٢٠٤ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .
(٣) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٥) الآية ٤٠ من سورة الزخرف .
(٦) الآية ٤١ من سورة الفرقان .
(٧) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .
(٨) الآيتان ٨٠ ، ٨١ من سورة النمل .
(٩) الآية ٧٩ من سورة النساء .
(١٠) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) .

نعم لا يلومن . إلا نفسه . قال تعالى : ﴿ **ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ ومعاذ الله أن يظلم مثقال ذرة ، وهو الذى سمى نفسه الحق ، فقال : ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾[1] . ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾[2] .

ثم ينتقل بنا الحديث بعد ذلك إلى ساحة الحساب فيبين لنا حال هؤلاء الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا لما كذَّبوا بلقاء الله ، قال تعالى :

﴿ **ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين** ﴾ .

هذا مشهد رهيب وموقف مهيب من مواقف الحشر وساحات الحساب ، إنهم عندما يُحشرون يستقصرون أعمارهم فى الدنيا ، كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار . قال تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة** ﴾[3] . وقال جلَّ شأنه : ﴿ **ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾[4] . وكقوله جلَّ شأنه : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾[5] وقال جلَّ شأنه : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾[6] .

فالدنيا مهما طال عمرها فعمرها قصير وخطرها حقير . قال تعالى : ﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾[7] .

فالدنيا دار مفر والآخرة دار مقر والعاقل من يأخذ من مفره إلى مقره فلا أمان لدنيا أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء ، وليعلم كل عاقل أن ميت الغد يشيع ميت اليوم .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء منقول
فإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

نعم كأن لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها :

تالله لو عاش الفتى فى دهره ... ألفا من الأعوام مالك أمره
متنعما فيها بكل نفيسة ... متلذذاً فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى ... بمبيت أول ليلة فى قبره

فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، إنهم عندما يجتمعون فى ساحة الحشر يتعارفون بينهم فيعرف

(١) الآية ٢٥ من سورة النور . (٤) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف . (٦) الآية ٤٦ من سورة النازعات .
(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٥) الآيات ١٠٢ – ١٠٤ من سورة طه . (٧) الآيات ١١٢ – ١١٤ من سورة المؤمنون
(٣) الآية ٥٥ من سورة الروم .

بعضهم بعضا لكن كل واحد مشغول بشأنه ﴿ ولا يسئل حميم حميما * يبصّرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه كلا ﴾(١). ﴿ فإذا جاءت الصاخّة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين** ﴾ :

وأى خسران أشد من هذا الخسران ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾(٣).

وأى هوان أشد من هذا الهوان ، إنهم لما كذبوا بلقاء الله شقوا ، وأى شقاء أشد من حالهم الذى هم فيه . قال تعالى : ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ إذ لو اهتدوا لزادهم الله هدى وما كذبوا بلقاء الله وإنما كانت قلوبهم ستمتلئ يقينا بأن لقاء الله حق فأحبوا لقاء الله ، ومن أحب لقاء الله أحب لقاءه .

قوله تعالى : ﴿ **وإما نُرينَّك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون . ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾ .

يخبر الله تعالى رسوله ومصطفاه أنه سيُرى هؤلاء المكذبين بعض الذى وعدهم من الانتقام والعذاب فى الدنيا حتى تقرعيون المؤمنين بوعد الله ، وقد حدث ذلك عندما أخذهم الله بالسنين ، وأوقع بهم الهزائم ، فإن توفيناك يا محمد فإنهم لن يفلتوا منا يوم الحساب ، فإلينا مرجعهم والله تعالى خير شهيد على أفعالهم ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد . ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم ﴾(٤).

فى هذا اليوم العظيم يكون لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى الله بينهم بالقسط ، قال تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾(٥).

وقال جلّ شأنه : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾(٦). وقال

---

(١) الآيات ١٠ – ١٥ من سورة المعارج .
(٢) الآيات ٣٣ – ٣٧ من سورة عبس .
(٣) الآية ٣١ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات ٥ – ٧ من سورة المجادلة .
(٥) الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة الزمر .
(٦) الآية ٤١ من سورة النساء

جلَّ شأنه : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾[١].

وأول الأمم التى يقضى بينها يوم القيامة أمة نبينا محمد ﷺ إكراما لنبينا كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق)[٢] فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين .

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾

هذا سؤال أرادوا به استعجال الساعة تهكما منهم بأمر الله تعالى ، قال جلَّ شأنه : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾[٣]. وقد جاء الجواب على سؤالهم هذا متمثلا فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾[٤] أى ﴿ ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾[٥] وذلك كقوله جلَّ شأنه : ﴿ يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[٦].

قوله تعالى : ﴿ **لكل أمة أجل** ﴾ أى زمان مقدر ، وحين معلوم ، إذا حان هذا الأجل ، ونزل بهم القدر المحتوم والمصير المقدور فلا يستأخرون ساعة عن أجلهم ، ولا يستقدمون عنه ساعة ، لكل أجل كتاب .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون * أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به ءآلئن وقد كنتم به تستعجلون * ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا** ﴾ وهذا خطاب موجه إلى الذين يستعجلون الساعة وهم مكذبون بها : ماذا أنتم فاعلون باستعجالكم إذا نزل العذاب بكم ليلا أو نهاراً ، وما الذى يستعجل به المجرمون إذا نزل بهم العذاب ، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ، قال تعالى :

(١) الآية ٧١ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٤) وفى الأيمان (١) وفى الرؤيا (٤٠) وفى التوحيد (٣٥) . ومسلم فى الجمعة (١٩ - ٣٣) . والنسائى فى الجمعة (١) وابن ماجه فى الإقامة (٧٨) وفى الزهد (٣٤) . والدارمى فى المقدمة (٨) .

(٣) الآية ١٨ من سورة الشورى . (٤) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٥٧ من سورة الأنعام .

(٦) الآيتان ١٨٧ ، ١٨٨ من سورة الأعراف .

﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾[١]

أثم إذا ما وقع بكم العذاب آمنتم به ، قال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[٢]. وقال جلَّ شأنه فى أمر فرعون ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلٓه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * ءآلئٰن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[٣].

ثم يقال يوم القيامة للكافرين الجاحدين المعاندين : ﴿ **ذوقوا عذاب الخلد** ﴾ وذلك مقتضى العدالة الإلٓهية ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ ذلك بما قدَّمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

قوله تعالى : ﴿ **ويستنبؤنك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين * ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾ .

لقد كانوا يطلبون الأخبار من رسول الله عن هذا السؤال المتعلق بالبعث بعد الموت : ﴿ **أحق هو** ﴾ أى ﴿ إذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾[٤] ﴿ **وأقسموا بالله جهدا أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[٥]

﴿ ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٦].

ولقد أجاب الرسول ﷺ كما أمره الله فى قوله : ﴿ **قل إى وربى إنه لحق** ﴾ كما أجاب فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ﴾[٧] وفى قوله تبارك اسمه : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[٨]

قوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ أى وما بعثكم يوم الحشر والحساب بمعجز لنا . ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٩].

ويوم القيامة يود الظالمون لو أن لأحدهم ملء الأرض ذهبا لافتدى به من سوء العذاب ، لكنهم

---

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة الأنبياء . (٤) الآية ٤٩ من سورة الإسراء . (٧) الآية ٣ من سورة سبأ .
(٢) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر . (٥) الآية ٣٨ من سورة النحل . (٨) الآية ٧ من سورة التغابن .
(٣) الآيات ٩٠ - ٩٢ من سورة يونس . (٦) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة النحل . (٩) الآيات ٧٧ - ٧٩ من سورة يس .

عندما يجدون حقائق القيامة ماثلة أمام العيون يُسرون الندامة . والله تعالى يقضى بينهم بالقسط ، وهم لا يُظلمون ، والله يقضى بالحق وهو يهدى السبيل .

قوله تعالى : ﴿ **ألا إن لله ما فى السماوات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون * هو يحيى ويميت وإليه ترجعون** ﴾

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الذى يملك السماوات والأرض ، قادر على أن يعيد الأجسام بعد فنائها : ﴿ أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[١]

﴿ **ألا إن وعد الله حق** ﴾ . ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون * أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون** ﴾[٢]

قوله تعالى ﴿ **هو يحيى ويميت وإليه ترجعون** ﴾ جاءت هذه الآية كالنتيجة بعد المقدمات ، فإن الذى ملك السماوات والأرض وما بينهما قادر على أن يحيى ويميت ، فهو المحيى المميت الرافع الخافض الباسط القابض الوارث الباعث المعز المذل الأول والآخر ، الظاهر والباطن الجبار ذو القوة المتين ، فالرجوع إليه وحده لا شريك له ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[٣].

القرآن شفاء لما فى الصدور

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

المفردات : ﴿ **موعظة** ﴾ العظة : الوصية بالحق والخير ، واجتناب الباطل والشر . ﴿ **شفاء** ﴾ الشفاء : الدواء ﴿ **وهدى** ﴾ الهدى : بيان الحق المنقذ من الضلال ﴿ **ورحمة** ﴾ الرحمة : الإحسان ﴿ **بفضل الله** ﴾ فضل الله : هو توفيقهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والهدى ﴿ **برحمته** ﴾ رحمته : هى الثمرة التى نتجت من ذلك وبها فضلوا جميع الناس .

بعد أن ذكر الأدلة على أسس الدين الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والبعث ، قضى على ذلك بذكر التشريع العملى ، وهو القرآن الكريم ، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع فى أمور أربعة :

يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾

(١) الآيات ٨١ : ٨٣ من سورة يس . (٢) الآية ٦ — ٨ من سورة الروم . (٣) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .

أى قل لهم أيها الرسول : قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من المواعظ الخمسة التى تصلح أخلاقكم وأعمالكم ، والشفاء للأمراض الباطنية والهداية الواضحة للصراط المستقيم الذى يوصل سعادة الدنيا والآخرة والرحمة الخاصة للمؤمنين من رب العالمين .

والخلاصة إن الآية الكريمة أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر فى أربعة أمور :

١ - **الموعظة الحسنة** : بالترغيب والترهيب بذكر ما يرق له القلب ، فيبعثه على الفعل أو الترك ، وقد جاء فى معنى الآية قوله : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾[1] وقوله ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾[2] .

٢ - **الشفاء لما فى القلوب** : من أدواء الشرك والنفاق وسائر الأمراض التى يشعر من أجلها بضيق الصدر ، كالشك فى الإيمان والبغى والعدوان وحب الظلم وبغض الحق والخير .

٣ - **الهدى إلى طريق الحق** : واليقين والبعد من الضلال فى الاعتقاد والعمل .

٤ - **الرحمة للمؤمنين** : وهى ما تثمر لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم ، ومن آثارها بذل المعروف ، وإغاثه الملهوف ، وكف الظلم ، ومنع التعدى والبغى ، وإجمال ذلك : أن موعظة القرآن وشفاءه لما فى الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل ، وهداه إلى الحق والفضائل موجهات إلى أمة الدعوة ، وهـم جميع الناس ، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ المؤمنين بأن يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان ، وبالرحمة الخاصة بهم ، الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة ، فقال سبحانه ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ أى قل لهم : ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، أى إن كان شيء فى الدنيا يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته .

روى ابن مردويه وأبو الشيخ عن أنس مرفوعاً « فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله »

وعن الحسن والضحاك وقتاده ومجاهد « فضل الله الايمان ورحمته القرآن » .

﴿ **هو خير مما يجمعون** ﴾ أى إن الفرح بهما أفضل وانفع مما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام والحرث والخيل المسومة ، وسائر خيرات الدنيا ، لأنه هو سبب السعادة فى الدارين ، وتلك سبب السعادة فى الدنيا الزائلة فحسب ، فقد نال المسلمون فى العصور الأولى بسببه الملك الواسع والمال الكثير مع الصلاح والإصلاح ، مما لم يتسن لغيرهم من قبل ولا من بعد .

وبعد أن جعلوا ديدنهم جمع ومتاع الدنيا ، ووجهوا همتهم إليه ، وتركوا هداية القرآن فى إتقانه والشكر عليه ، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدى أعدائهم .

(١) الآية ٢٣١ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .

إفحام المفترين

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

مقتضى التوحيد الحق أن يعتقد المسلم أن الذى يملك التحليل والتحريم هو الله وحده ، ومن هنا فإن الله تعالى يأمر حبيبه ومصطفاه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين ﴿ **أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً وحلالا** ﴾ أى أخبرونى لماذا حرمتم أشياء قد أحلها الله ، وأحللتم أخرى قد حرمها الله ، لقد حرمتم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وشرعتم فى الأنعام والحرث تشريعا ما أنزل الله به من سلطان .

والله تعالى يقول فى سورة المائدة : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾[١] .

وكما جاء فى قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾[٢]

وكما فى قوله تعالى ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾[٣]

إن هؤلاء الذين حرموا وأحلوا تبعا لأهوائهم وأنفسهم المريضة ، يلقى الله تعالى عليهم باللائمة ، فيقول : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[٤].

ويقول سبحانه ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾[٥]

سلهم يا محمد وقل لهم ﴿ **آلله أذن لكم أم على الله تفترون** ﴾ فإذا كان الله تعالى لم يأذن لهم بذلك

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المائدة .
(٢) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .
(٣) الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ الأنعام .
(٤) الآية ٣١ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٢١ من سورة الشورى .

لأنه تعالى لا يشرك فى حكمه أحداً ، فبقى القسم الآخر وهو افتراؤهم على الله ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا

ثم يبين تعالى الوعيد للمفترين فيقول ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يفترون ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة** ﴾

إن عقابهم لشديد ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[2]

قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾[3]

قوله جل شأنه ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾

سبحانه عمت رحمته ، ووسعت آلاؤه عباده ، فسخر لهم ما فى السموات والأرض جميعاً منه ، وبنى التحليل والتحريم على حكمة بالغة يعلمها هو ، ومن أصدق من الله حديثا؟ لا أحد ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟. لا أحد ، قل أأنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل ليته مانهى

ومن هنا فإن شكر المنعم واجب ، وأفضل الشكر تسخير الجوارح لطاعة الله .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[4].

الرقيب الاعلى

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

(١) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس .
(٢) الآيات ٤ — ٦ من سورة المطففين
(٣) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .
(٤) الآيات ١١٢ — ١١٤ من سورة النحل .

المفـردات : ﴿ **شأن** ﴾ الشأن : الأمر العظيم . تقول العرب . ما شأن فلان أى ما حاله .
﴿ **تفيضون** ﴾ أفاض فى الشىء : أو من المكان . اندفع فيه بقوة أو بكثرة ﴿ **يعزب** ﴾ عزب : الرجل بإبله يعزب أى بعد وغاب فى طلب الكلأ ﴿ **ذرة** ﴾ الذرة : النملة الصغيرة وبها يضرب المثل فى الصغر والخفة وتطلق على الدقيقة من الغبار الذى يرى فى ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت . ﴿ **كتاب** ﴾ الكتاب : هو اللوح المحفوظ .

بعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن فضله على عباده كثير ، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته ، وترك معصيته ، وأن القليل منهم هم الشاكرون ، قفّى على ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم ، ما دق منها وما عظم فى جميع ملكوت السموات والأرض ، حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم فى ذكره وشكره وعبادته .

﴿ **وما تكون فى شأن** ﴾ أى وما تكون أيها الرسول الكريم فى أمر من أمورك الهامة ، خاصة كانت أو عامة ، مما تعالج بها شئون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنذاراً لها وتبشيرا ، وتعليماً وعملا .

﴿ **وما تتلو منه من قرآن** ﴾ أى وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك ، تعبدا به ، أو تبليغاً له .

وفى التعبير بالشأن وهو الأمر ذو البال دلالة على أن جميع أموره ﷺ كانت عظيمة ، حتى ما كان منها من مجرى العادات ، لأنه ﷺ كان فيها قدوة صالحة .

وبعد أن خاطب رسوله ﷺ انتقل إلى خطاب الأمة كلها فى شئونها وأعمالها ، فقال :

﴿ **ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه** ﴾

أى ولا تعملون أى عمل خيراً كان أو شراً ، شكرا كان أو كفراً ، وإن كان المثقال الذرة إلا كنا رقباء عليكم إذ تخوضون فيه ، فنحفظه عليكم ، ونجازيكم به .

﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ :

أى وما يبعد عن علمه ، ولا يخفى عليه أقل شىء يبلغ وزنه ثقل ذرة فى الوجود السفلى والعلوى .

وفى التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتماً به مندفعا فيه ، جدير بألا يغفل عن مراقبة ربه فيه ، وإطلاعه عليه .

وكذلك فى التعبير بيعزب الدال على الخفاء والبعد ، دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى ، وقدم ذكر الأرض لأن الكلام مع أهلها .

ثم أكد سبحانه ما سبق ، وبين إحاطة علمه بكل شيء ، فقال :

﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾

أى ولا شيء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ، ولا أكبر من ذلك وإن عظيم مقداره كعرشه تعالى ، إلا وهو معلوم له ومحصى عنده فى كتاب عظيم الشأن ، وهو الكتاب الذى كتب فيه مقادير الموجودات كلها ، إكمالاً للنظام ، وبيانا لضبط جميع الأعمال ، وفى معنى الآية قوله ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * وما لاتبصرون ﴾[1]

وفى ذلك إشارة إلى أن فى الوجود أشياء لا ندركها ، وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافا مضاعفة ، أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات ، كالجراثيم ، ولم تكن تخطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن ، فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير .

أولياء الله

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

المفردات : ﴿ **أولياء** ﴾ الأولياء : جمع ولىّ من الولى وهو القرب يقال تباعد بعد ولى : أى بعد قرب ، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون . ﴿ **البشرى** ﴾ هى الخبر السار الذى تنبسط به بشرة الوجه فتتهلل وتبرق أساريره .

كل من كان تقياً كان لله ولياً ، والإيمان والتقوى هما الركيزتان الأساسيتان فى الولاية ، فالولى كل عبد مؤمن تقى ، وإنما سمى وليا لأن الله تعالى تولاه بالحرص ، وهو تولى حقوق الله بالرعاية ، وأولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله ، فإذا رأيت أحدهم ذكرك بالله .

روى ابن جرير بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ((إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال : هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾)) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول ﷺ : ((يأتى من أفناء الناس

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة الحاقة .

ونوازع القبائل قوم لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى الله ، وتصافوا فى الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلهم عليها يفزع الناس ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون))[١].

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء رى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له »[٢]

أما بشراه فى الآخرة فهى الجنة قال تعالى ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾[٣]

وروى مسلم بسنده عن أبى ذرأنه قال يارسول الله . الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ ((تلك عاجل بشرى المؤمن))[٤].

وقيل المراد بذلك : بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ، كقوله تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾[٥]

وفى حديث البراء رضى الله عنه ((أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقال : اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان . فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء)) .

وأما بشراهم فى الآخرة فكما قال تعالى ﴿ لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[٦]

وقال تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٧]

﴿ **لاتبديل لكلمات الله** ﴾ أى هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ، ولا يغير ، بل هو تقرر ، وثبت كائن لا محالة ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٥:٣٤٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (١:٢١٩،٣١٥) وفى (٣:٥،١١٩،١٢٢،١٣٧،٢١٩) وفى (٥:٤٤،٥٠،٣١٥،٣٢١) ، وفى (٦:١٢٩،١٥٣،٢٣٢،٤٤٥،٤٤٧،٤٥٢) .

(٣) الآية ٢١ من سورة التوبة .

(٤) أخرجه مسلم فى البر (١٦٦) . وابن ماجه فى الزهد (٢٥) . والإمام أحمد فى (٥:١٥٦،١٥٧،١٦٨) .

(٥) الآيات ٣٠ – ٣٢ من سورة فصلت . (٦) الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء . (٧) الآية ١٢ من سورة الحديد .

العزة لله

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **العزة** ﴾ : الغلبة والقوة . ﴿ **يخرصون** ﴾ الخرص : الحزر والتقدير للشيء الذى لا يجرى على قياس من وزنه أو كيل أو زرع كخرص الثمر على الشجر والحب فى الزرع ويستعمل بمعنى الكذب أيضا لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ﴿ **مبصرا** ﴾ المبصر : ذو الإبصار بقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء .

هذا تثبيت من الله تعالى لحبيبه ومصطفاه ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ لا تبتئس بما كانوا يعملون ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾[١] ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾[٢] فقد قالوا عن الله إن له صاحبة وولدا ، وقالوا عن المرسلين إنهم سحرة مجانين ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٣] ﴿ كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتولّ عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٤]

وسبحان من يقول لرسوله الكريم ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٥]

لا تحزن ﴿ **إن العزة لله جميعاً** ﴾ فهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، فمن كان الله معه فمن عليه ، ومن وجد الله فماذا فقد . ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾[٦] ﴿ **أليس الله بعزيز ذى انتقام** ﴾[٧] .

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعزّبه ... وكن عفيفا وعظّم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

(١) الآية ١٢٧ من سورة النحل .
(٢) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٣) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٤) الآيات ٥٢ – ٥٥ من سورة الذاريات .
(٥) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٣٦ من سورة الزمر .
(٧) الآية ٣٧ من سورة الزمر .

إن ذلك الإلّه القادر هو السميع للأقوال ، العليم بكل الأحوال ، هو المالك المتصرف ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته.

﴿ **ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ فكل ما سواه فهو باطل ﴿ **وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء** ﴾ إنما هى أوهام لا حقيقة لها ، وخيال عابر لا صحة لوجوده ، وأسماء لا مسميات لها : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[1]

فهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله ما زعموهم شركاء لله ، ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ ويكذبون

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك لقال لك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان ، إنه خالق الكونين المكانى والزمانى ، فالمكانى أرض وسماء ، والزمانى ليل ونهار .

﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا** ﴾

وجل جلال الحق إذ يقول ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامه من إلّه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إلّه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[2]

وفى هذا القدر كفاية لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والندى ... وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا

فيا أيها العقلاء : انظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وتأملوا فى هذا النظام البديع ، والنسق الرتيب ، ورددوا معى قوله تعالى ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ .

---

(١) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة النجم .
(٢) الآيات ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

تنزيه ما بعده تنزيه

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)

المفردات : ﴿ **ولدا** ﴾ الولد : يستعمل مفرداً وجمعاً وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسرفيهما﴿ **سبحانه** ﴾ : كلمة تنزيه وتقديس وتستعمل للتعجب ﴿ **سلطان** ﴾ السلطان : الحجة والبرهان .

بعد أن حكى سبحانه وتعالى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عنده ، قفى على ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم ، وهو زعمهم أنه تعالى جده اتخذ ولداً ، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء .

﴿ **قالوا اتخذ الله ولدا** ﴾ أى وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله . ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزه ربنا عما لا يليق بربوبيته وألوهيته ، ويمكن أن يكون المعنى - عجيب أن تصدر منهم الكلمة الحمقاء .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله : ﴿ **هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ : أى أن الله غنى عن خلقه جميعاً ، فإن كل ما فى الوجود من العالم العلوى والسفلى ، ملك له ولا حاجة له إلى شيء منه ، وجميعه فى حاجة إليه ولا يجانسه شيء منه ، فالإنسان يحتاج إلى الولد ، إما للنصرة والمعونة ، وإما للإعزاز به لدى الأهل والعشيرة .

وإما لأنه زينة يلهو به فى صغره ويفخر به فى كبره ، وإما للحاجة إليه فى قضاء مصالحه أو لانتظار رخده وبره حين عجزه أو فقره وإما لبقاء ذكره بعد موته ، والله غنى عن كل ذلك ولا حاجة له إلى شيء من هذه المنافع ، فهو مستغن أزلاً وأبدا .

﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ : أى ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

ثم أكد ماسلف ﴿ **أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ : أى أتقولون على الله قولا لاتعلمون حقيقته ، وتنسبون إليه تعالى مالا يجوز إضافته إليه ، ولاسيما بعد مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية ، والوحى الإلهى .

وفى الآية إيماء إلى أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد الدينية لابد فيها من دليل قاطع ، وإن التقليد فيها غير سائغ .

﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾

أى قل لهم : إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه ، أو باتخاذه ولدا لنفسه ، أو بدعوى أن الأولياء يطلعون على أسرار خلقه ، ويتصرفون فى ملكه ، لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ، ولا ينجون من عذاب الآخرة .

﴿ متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾

أى هؤلاء لهم متاع فى الدنيا حقير يتلهون به فى حياة قصيرة هى الحياة الدنيا ، إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال ، أو عظم جاه ، فهو قليل بالنسبه إلى ما عند الله فى الآخرة للصادقين المتقين ، ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب ، فيذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياته ، وبالافتراء عليه ، وتكذيب رسله ، بعد أن قامت عليهم الحجة .

وفى الآية إيماء إلى أن ما نظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المادية والمعنوية فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم .

نبأ نوح

* وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

المفردات : ﴿ **نبأ** ﴾ النبأ : الخبر له خطر وشأن . ﴿ **مقامى** ﴾ المقام : الإقامة والمكث والإجماع العزيمة على الأمر عزماً لا تردد فيه ، كما قال شاعرهم : ﴿ **أجمعوا أمركم** ﴾ أجمعوا أمرهم ؟ بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء ﴿ **غمة** ﴾ الغمة : الستر واللبس يقال إنه لقي غمة من أمره : إذا لم يهتد له ﴿ **اقضوا إلى** ﴾ قضاء الأمر : أداؤه وتنفيذه قال تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ ﴿ **تنظرون** ﴾ الإنظار : التأخير والإمهال ﴿ **خلائف** ﴾ أى يخلفون الذين هلكوا بالغرق ﴿ **المنذرين** ﴾ : المخوفون بالله وعذابه .

بعد أن ذكر سبحانه عناد المشركين لرسوله ﷺ ، وتكذيبهم له ، بعد أن قامت البراهين على صدقه ، قفى على ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلية له ﷺ ، وبيانا بأن قومه لم يكونوا بدعاً فى عنادهم وتكذيبهم له ، بل سبقهم فى مثل فعلهم كثير من بالغى الأمم ، وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم ، وأتم الله لهم النصر ، فلعل أولئك القوم يتدبرون حالهم ، فينزجروا بما فيه مزدجر لهم ، ويعترفوا بصدقه ﷺ ويؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة ، فيندمون ولات ساعة مندم .

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ﴾

أى وأقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم على مقتضى سننه فى المكذبين لرسله من قبلك ، خبر نوح حين قال لقومه ياقوم إن كان قد شق عليكم قيامى فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم ، وتذكيرى إياكم بآياته الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته ، فإننى قد وكلت أمرى إلى الله الذى أرسلنى ، واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتى .

﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ : أى فأعدوا أمركم ، واعزموا على ما تقدمون عليه فى أمرى مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله ، كما أدعو ربى وأتوكل عليه .

﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ : أى ثم لا يكن أمركم الذى تعتزمونه خفياً عليكم ، فيه حيرة ولبس ، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه . **﴿ ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾** : أى ثم أدوا إلى ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه ، وبعد استبانته التى لاغمة فيها ، ولا التباس ، بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ، ولا تمهلونى بتأخير هذا القضاء .

الخلاصـــة : إن نوحاً طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به ، مطالبة المدل ببأسه وقوته ، المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة وقوة الإرادة ، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركائهم وآلهتهم ، وألا يكون فى أمرهم الذى أجمعوا عليه شىء من الغمة والخفاء الذى قد يوجب الوهن والتردد فى التنفيذ .

﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾

أى فإن أعرضتم عن تذكيرى بعد دعائى إياكم ، وتبليغ رسالة ربى إليكم ، فلن يضرنى ، فإنى لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرا ، ولا جزاء ، وما جزاء عملى وثوابى إلا على ربى الذى أرسلنى إليكم ، فهو يوفينى إياه آمنتم أو توليتم ، وأمرت أن أكون من المنقادين بالفعل لما أدعوكم إليه .

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ : أى فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله فى حقيقة دعوته فنجيناه هو ومن آمن معه فى السفينة التى كان يصنعها بأمرنا .

﴿ وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾

أى وجعلنا الذين نجينا مع نوح فى السفينة خلائف فى الأرض من قومه الذين كذبوه ، بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم ، وحقت عليهم كلمة ربك .

فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم ، ووقوع عذاب الله بهم ، وأصروا على تكذيبهم ، وهكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، أما عاقبة المؤمنين المتقين لك فاقرأ إن شئت قوله ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] .

الطبع على قلوب الكافرين

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

المفردات : ﴿ **نطبع** ﴾ الطبع على القلوب : هو عدم قبولها شيئا غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها ﴿ **المعتدين** ﴾ جمع مفرده المعتدى والمعتدى : المتجاوز حدود الحق والعدل اتباعاً لهوى النفس وشهواتها .

بعد أن ذكر عز اسمه قصص نوح مع قومه ، وبين عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم ، بين هنا عبرة أخرى من عبر مكذبى الرسل ، وسنة من سننه فيهم ، عسى أن يعتبر بها أهل مكة ، فيعلموا أن لله سننا لا تبديل فيها ولا تحويل ، فيتقوا مثل تلك العاقبة التى حلت بمن قبلهم من المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، واتقاؤها فى مكنتهم وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه ، ويبتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوه .

﴿ **ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات** ﴾

أى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فى تكذيب رسلهم ، فقد أرسل هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام الذين كانوا فى زمانه أما شعيب ، فإنه أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة ، فقد كانوا متحدين معهم لغة ووطنا ، فجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه فى رسالته بحسب ما يتسنى لهم فهمه من الأدلة العقلية والحسية .

﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل** ﴾ أى فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ، ممن كان مثله فى سبب كفره ، وهو استكبار الرؤساء ، وتقليد الدهماء .

﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ : أى مثل هذا الطبع ، وعلى ذلك النهج نطبع على قلوب المعتدين أمثالهم فى كل قوم كقومك ، إذ كانوا مثلهم فى اللجاج والعتوّ والاستكبار فى الأرض . ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[2].

---

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر (٢) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

طرف من قصة موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ * وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

المفـردات : ﴿ **ملإيه** ﴾ الملأ : أشراف القوم الذين يجتمعون على رأى ﴿ **لتلفتنا** ﴾ لفته : عن كذا : صرفه . ﴿ **ذرية** ﴾ الذرية : فى اللغة صغار الأولاد وتستعمل فى الصغار والكبار عرفا . ﴿ **يفتنهم** ﴾ الفتون : الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الفعل أو الترك ، والمراد هنا الاضطهاد والتعذيب . ﴿ **لعال** ﴾ العلو : القهر والاستبداد . ﴿ **أن تبوء** ﴾ تبوء الدار : اتخذها مباءة ومسكنا يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة ﴿ **قبلة** ﴾ القبلة : ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه ومنه قبلة الصلاة . ﴿ **زينة** ﴾ الزينة : الحلل والحلّى والأثاث والرياش والماعون والأموال ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك . ﴿ **اطمس** ﴾ الطمس : الإزالة يقال طمس الأثر ومحته الريح : إذا زال . ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ الشد على القلب : الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان يقال : جاز المكان وجاوزه ﴿ **وجاوزنا** ﴾ تجاوزه : إذا قطعه حتى خلفه وراءه ويقال تبعته حتى اتبعته إذا كان قد سبقك فلحقته . ﴿ **ننجيك** ﴾ : نجعلك على نجوة من الأرض والنجوة : المكان المرتفع من الأرض والآية : العبرة والعظة . ﴿ **مبوأ صدق** ﴾ : أى منزلا صالحًا مرضيًا : وأصل الصدق ضد الكذب ولكن جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا مكان صدق ، إذا كان كاملا فى صفة ، صالحًا للغرض المقصود منه ، كأنهم أردادوا أن كل ما يظهر فقيه من الخير فهو صادق والعلم هنا علم الدين .

هذا جانب من قصة كليم الله موسى ، وتلك القصة قد ذكرها القرآن فى مواضع كثيرة ، وفى كل موضع من المعانى والمقاصد ما يملأ النفس روعة وجلالا ، وهنا يذكر سبحانه أنه بعث موسى وهارون بعد الرسل الذين تقدموهما ، بعثهما إلى فرعون وملإه .

ولقد جاءت بعثة هارون تلبية لدعوة موسى ، فإن الله تعالى لما قال له : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى*ويسرلى أمرى * واحلل عقدة من لسانى*يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾[1].

وفى سورة القصص جاء قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون * قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[2].

(١) الآيات ٢٤ – ٣٦ من سورة طه .

(٢) الآيات ٣٣ – ٣٥ من سورة القصص .

فماذا كان موقف فرعون وملإه ؟ لقد استكبروا وكانوا قوما مجرمين ، والاستكبار عن الحق نذير شؤم ، إذ الهلاك يأتى بعد الاستكبار ، فما بالك وقد جمعوا مع الاستكبار السخرية من الحق . قال تعالى ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون * وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾[1].

وقال تعالى ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحر مبين** ﴾ . ولم تكن هذه اللهجة خاصة بفرعون وملإه ، إنما كانت لغة المكذبين فى كل عصر ، فقد قالوا لرسول الله ﷺ عند انشقاق القمر : إن محمدا سحر أعيننا .

وهكذا أطلقوا لفظ السحر على آيات الله المعجزة ، قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتولّ عنهم فما أنت بملوم * وذكِّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[3] . وقال سبحانه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[4].

إن منطلق الباطل قائم على الزور والبهتان والجحود والتكذيب والإنكار والسخرية والسفسطة إذ كيف توصف المعجزات بأنها سحر ، والمعجزة حقيقة واقعة ، فقلب العصا ثعبانا كان أمرا حقيقيا لامراء فيه ولا لبس ولا غموض ، وانشقاق القمر كان كذلك ، والمعجزة بأنواعها فعلية كانت أو قولية أو تركية ، حقائق ثابتة .

أما السحر فإنه أوهام فى العقل ، وتخييلات فى الحس ، قال تعالى : ﴿ يخُيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾[5] وقال جلَّ جلاله : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾[6].

فالبون شاسع والمدى بعيد . لذا قال لهم موسى : ﴿ **أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا** ﴾

فاعجب معى لكلمة الحق وكلمة السحر ، فآيات الله حق ، وما يأتى به السحرة باطل .

قال تعالى : ﴿ **ولا يفلح الساحرون** ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[7]

فماذا كان منطق الباطل بعد ذلك ؟

﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ .

---

(١) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الزخرف .
(٢) الآيات ١ ، ٣ من سورة القمر .
(٣) الآيات ٥٢ — ٥٥ من سورة الذاريات .
(٤) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٦٦ من سورة طه .
(٦) الآية ١١٦ من سورة الأعراف .
(٧) الآية ٦٩ من سورة طه .

فانظر معى كيف صرفوا الحديث إلى أمر لاصلة له بسياق الحديث قبله ، وكأنَّ القضية عندهم قضية كبرياء ووجاهة فى الأرض ، وعظمة وملك ورئاسة .

ثم انظر إلى تلك المأساة المحزنة والمخزية والمؤسفة :

﴿ **أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ إنه التقليد المذموم ، والإصرار على الباطل : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾[1] . ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾[2] . ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[3].

وأى كبرياء تلك التى يحرصون عليها ؟ ويخشون أن تكون لموسى وهارون ؟!

إن أصحاب الرسالات لا يريدون فى الأرض علوا ولا فسادا ولا كبرياء ، إنما هم كما قال فيهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾[4]. وكما قال جلَّ ذكره : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[5] . وكما قال جلَّ ذكره : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[6]. فأى كبرياء يسعى وراءها أصحاب الرسالات ؟!

ثم انظر إصرار المكذبين على باطلهم إذ يقولون : ﴿ **وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ كما فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾[7].

فماذا كان رأى فرعون فى هذا الموقف المحتدم ؟ لقد كان رأيه عجيبا ، فقد أمر بجمع السحرة ليدخل فى معركة فاصلة بينه وبين موسى وهارون : ﴿ **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** ﴾ فاعجب لقوله ﴿ **بكل ساحر عليم** ﴾ إنه أراد بذلك أن يحشد أكبر قوة ضاربة فى مجال السحر ، ظناً منه أن المعارك يُحكم لها أو عليها بالكثرة العددية ، ونسى أو تناسى أن المعركة هنا بين الحق والباطل ولقد كان فرعون يعلم هذا ، كما جاء فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾[8]

لقد جمع فرعون السحرة كما قال تعالى : ﴿ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ﴾[9] وكان الموعد يوم الزينة ، قال تعالى : ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون ﴾[10]

---

(١) الآية ١٠٤ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٢١ من سورة لقمان .
(٣) الآيات ٢٢ — ٢٥ من سورة الزخرف .
(٤) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الحديد .
(٦) الآية ٩٠ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ١٣٢ من سورة الأعراف .
(٨) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .
(٩) الآية ٥٣ من سورة الشعراء .
(١٠) الآية ٨٠ من سورة يونس .

وهكذا أراد موسى أن يلقوا أولا حتى يأتى الحق فيدمغ الباطل ، قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾(١).

فماذا كان مصير المعركة ؟ قال تعالى : ﴿ **فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾ .

إن من أسماء الله تعالى الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

لقد جاء تفصيل هذا المشهد فى الأعراف وطه والشعراء : قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾(٢).

نعم لا إله غيرك ، ولا رب سواك ، إن الله تعالى مع الحق ، وإذا كان للباطل صولة . وجولة فإن العاقبة للحق . ومهما عربد الباطل فى عرصات الدنيا فلابد أن يصرعه الحق .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا عبد الرحمن يعنى الدشتكى أخبرنا أبو جعفر الرازى عن ليث وهو ابن أبى سليم قال : بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى ، تقرأ فى إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور الآية التى من سورة يونس ﴿ **فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾ .

والآية الأخرى ﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** ﴾(٣) إلى آخر أربع آيات ، وقوله : ﴿ **إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾(٤)

قوله تعالى : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين** ﴾

إن هذه الآية الكريمة تصور هذا الجو الرهيب الكئيب المكفهر ، تصوره بما فيه من وعيد وتهديد ، وزجر وإرهاب وتعذيب وقتل وتشريد ، إن الذين آمنوا وهم الشباب آمنوا على خوف من فرعون ، هذا الشيطان الأكبر الذى ملأ طباق الأرض جورا وظلما وفسادا . ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾(٥).

وما أدق قوله تعالى : ﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين ﴾(٦).

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيات ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١١٨ من سورة الأعراف
(٤) الآية ٦٩ من سورة طه
(٥) الآية ٤ من سورة القصص .
(٦) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة الدخان .

فتأمل كيف جعل العذاب المهين هو فرعون ، لقد آمن من آمن على وجل من أن يفتنهم فرعون ومن معه ، فإنه شرير متكبر متجبر . وهل هناك تجبر بعد أن يدعى لنفسه الألوهية . ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٰه غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إلٰه موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[١]

لقد هدد فرعون بكل ألوان العذاب حتى قال : ما حكاه القرآن الكريم ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربّه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[٢] .

أما موسى فقد قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾[٣].

لقد علا فرعون فى الأرض ﴿ فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[٤].

ولقد أراد موسى بعد أن فصل الله فى معركة الحق مع الباطل ، وآمن من آمن ، أراد موسى أن يثبت جذور العقيدة فى سويداء القلوب ، فقال لقومه : ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾

إذ الإسلام إذعان وانقياد وتسليم وتفويض لله تعالى . وحقيقة الإسلام أن يسلم لله وجهك . ﴿ ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾[٥].

ومن علامات الإيمان التوكل على الله والاعتماد عليه ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾[٦].

فمن آمن بالله توكل عليه ومن توكل عليه فقد أسلم له وانقاد لأمره ورضى بقضائه . فاللهم ارضنا بقضائك وبارك لنا فى قدرك حتى لا نحب ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم : أمؤمنون أنتم ؟ قال عمر : نعم يارسول الله . قال : « **فما حقيقة إيمانكم** ؟ » قالوا : نصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ونشكر فى الرخاء . قال « **مؤمنون ورب الكعبة** » .

وحسبك أيها المسلم أن تتدبر قول ربك : ﴿ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يُرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٧].

---

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة القصص .
(٢) الآية ٢٦ من سورة غافر .
(٣) الآية ٢٧ من سورة غافر .
(٤) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٥) الآية ٢٢ من سورة لقمان .
(٦) الآية ٣ من سورة الطلاق .
(٧) الآية ١٢٣ من سورة هود .

لقد أجاب قومه قائلين : ﴿ **على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾ .

وهذا دعاء جاء مطابقا لمقتضى الحال كأنهم يسألون الله تعالى ألا يبتليهم بما يُشمت بهم عدوهم فيقول العدو : لو كان هؤلاء المؤمنون على حق ما ابتلوا ، فإن الظالمين أهل شماتة ، فقلوبهم مظلمة تهيج فيها عقارب الحقد ، وثعابين البغضاء ، وطلب النجاة من الله أمر مرغوب فيه ، فالكافر لا يرقب فى المؤمن إلاً ولاذمة ، فاللهم تداركنا بلطف برك .

ولقد أمر الله تعالى موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بمصر بيوتا يعبدون الله تعالى فيها ، ويقيمون الصلاة ، وفى المحافظة على عبادة الله بشرى للمؤمنين بالسعادة والفلاح فى العاجل والآجل .

قال جلَّ شأنه : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾

ورأى نبى الله موسى ما رآى من جبروت فرعون وظلمه وعسفه وحنقه وطيشه ، فدعا عليه ربه حتى يستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب .

﴿ **وقال موسى ربَّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ .

والمراد بالزينة : الحُلل والحُلىّ والأثاث والرياش والماعون .

الأموال : ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك ، .

والطمس : الإزالة يقال : طمس الأثر وطمسته الريح : إذا زال .

والشد على القلب : الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان .

وإنما قال تعالى : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ بضمير التثنية مع أن موسى هو الذى دعا ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء موسى ، فكأنه دعا معه . وأمره تعالى لهما بالاستقامة كأمره لرسوله محمد ﷺ فى قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾[1] والمراد بالاسقامة الثبات على الإيمان ، كما قال الصادق المعصوم لسفيان بن عبد الله : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2].

وتأخذ الآيات البينات بعد ذلك فى بيان المشهد الختامى لفرعون وقومه ، فيقول جل شأنه : ﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق ، قال آمنت أنه لا إلَه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ .

---

(١) الآية ١١٢ من سورة هود . (٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٢) . والإمام أحمد فى (٤١٣:٣) وفى (٣٨٥:٤) .

إنه مشهد ينطق بالجلال والعظمة تقشعر لهوله الأبدان يقول الله تعالى فى وصفه : ﴿ فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ (١).

لقد ادلهمّت الخطوب ، واحتدمت المحن ، فهؤلاء بنو إسرائيل وعلى رأسهم موسى وهارون يقفون موقفا صعبا ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم ، وأى عدو ! إنه الجبار العنيد صاحب الصولة والصولجان ، ورجل البغى والطغيان ، لقد أتبعهم بجنده وخيله وسلاحه وجبروته .

هنا بلغت القلوب الحناجر ، قال قوم موسى وقد ارتجفوا من هول ما رأوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾ (٢)

قال موسى بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ، من منطق الإيمان الذى إذ اباشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يحرك العوالم ويسير الجبال ويجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، قال ﴿ كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ (٣).

وهنا تأتى النجدة من رافع السماء بلا عمد . قال تعالى : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثمَّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾ (٤).

لقد قطع الله تعالى البحر ببنى إسرائيل وخلّفه وراءهم بعدما جعله طرقا يابسة بعدد أسباطهم الاثنى عشر ، ورأى موسى بعد عبور البحر أن يضربه بعصاه حتى يعيده كما كان ، فلا يتمكن فرعون من عبوره ، فقال له الله تعالى : ﴿ واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ﴾ (٥) .

وظن فرعون أن البحر قد سُخر له كما سُخر لموسى وأن الأمور بيده وأنه الفعَّال لما يريد ، ونسى أو تناس أن للكون إلٓها يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء . قال تعالى ﴿ **فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا** ﴾

لا ليعبر البحر فحسب إنما لينزل بهم العقاب والعذاب ، فكان الجزاء من جنس العمل : هاج الموج فكان كالجبال ، كما قال تعالى فى سورة طه : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ (٦).

فالتعبير بالموصول هنا لإفادة التهويل والتفخيم ﴿ **ما غشيهم** ، **وأضل فرعون قومه وماهدى** ﴾

لقد أطبقت عليهم الأمواج ، فإذا فرعون ينادى عندما أدركه الغرق ﴿ **آمنت أنه لا إلٓه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ .

وحملته نفسه الأمارة وكبره المقيت على ألا ينطق بلفظ الجلالة ، فلم يقل أنه لا إلٓه إلا الله ، وإنما قال

(١) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٦١ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ٦٢ من سورة الشعراء .
(٤) الآيات ٦٣ - ٦٨ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ٢٤ من سورة الدخان .
(٦) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة طه .

﴿ **إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ ولكن إيمانه مغشوش ، وإسلامه زائف ، لم يكن إيمانه تصديقا ، ولم يكن إسلامه إذعانا ، إنما لأنه أدركه الغرق .

لذا جاء الرد قاطعا ، والجواب حاسما وساطعا ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾

أى أتقول ذلك الآن لما أدركك الغرق ، ترجو النجاة ولم تتخذ لها الأسباب كيف يكون ذلك كذلك والسفينة لا ترسو على يبس . ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوما غرَّتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

يقول الله تعالى فى فرعون وأمثاله : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا لتكون لمن خلفك وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ :

هذا الجانب من جوانب العبرة ، فقد شاءت إرادة الله واقتضت حكمته أن ينجو فرعون بجسده ، ولتلقه الرياح على شاطىء البحر جسداً جامداً لا حراك فيه ولا حياة ، ذلك الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى ، فيقول ما علمت لكم من إله غيرى ، فأى إله هذا الذى مات ، ومن الذى أماته ، فسبحانه صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[٢]

وهكذا بعد ذكر الجبابرة وطغاة البشر يأتى الله بجانب العبرة ، كما قال تعالى بعد ذكر قوم لوط ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٣] وكما قال ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾[٤] وكما قال فى سورة القمر ﴿ فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٥] وكما قال فى شأن فرعون ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[٦] وكما قال بعد ذكر الأنبياء فى سورة هود ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾[٧]

وكما قال بعد ذكر الجبابرة فى سورة العنكبوت ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً

---

(١) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .
(٢) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران .
(٣) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .
(٤) الآية ٣٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة القمر .
(٦) الآية ٢٦ من سورة النازعات .
(٧) الايتان ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة هود .

ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾[١].

فهل من مدكر وهل من معتبر ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوّأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾

بعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده ، قفى على ذلك بذكر عاقبة بنى إسرائيل ، وفى هذا عبرة لمكذبى محمد ﷺ ، والجاحدين من قومه المفترين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم ، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عددًا ، وأشد قوة ، وأوفر ثروة ، وقد جعل الله سننه فى المكذبين واحدة ، ففكروا أيها المكذبون فى عاقبة أمركم ، وتدبروا مليا خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وها هو ذا أهلك أكثر زعمائهم ، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين ، وأعطاهم أعظم ملك فى العالمين .

﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق** ﴾ : أى ولقد أسكناهم منزلا مرضيا وهو منزلهم ، وهو بمعنى قوله ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾[٢].

﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى ورزقناهم من اللذائذ فيها ، وقد جاء وصفها فى كتبهم بأنها تفيض لبنا وعسلا،وفيها كثير من الغلات والثمرات والأنعام ، وصيد البر والبحر .

﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ أى فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد ما علموا بقراءة التوراة ، والوقوف على أحكامها ، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته والإقرار به ، وبمبعثه ، غير مختلفين فيه بالنعت الذى كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض ، وآمن آخرون .

﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أى إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته فى دار الدنيا ، بل سيقضى الله بينهم فى الآخرة فيميز المحقين من المبطلين ، ويدخل الأولين الجنة ، والآخرين النار وبئس القرار .

---

(١) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .

تقرير صدق القرآن

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧)﴾

المفردات : ﴿ **حقت عليهم كلمة ربك** ﴾ : أى ثبت عليهم قضاؤه وحكمه .

إن الله عز وجل قد ذكر بنى إسرائيل ﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ وهم حملة الكتاب (التوراة والإنجيل) ، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم إذ أمر رسول الله مكتوب عندهم ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد هنا جل شأنه أن يؤكد علمه بصحة القرآن ، وصدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، على سبيل المبالغة ، فقال : فإن وقع منك شك فرضاً وتقديراً (كما تقول لابنك . إن كنت ابنى حقا فافعل كذا) مما أنزلنا إليك من قصص نوح وموسى مثلا، فقل لعلماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، والمراد أنهم على علم تام بصحة ما أنزل إليك ، وهم يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم ، فضلا عن غيرك .

فالغرض وصف الأحبار بالعلم لا وصف النبى ﷺ بالشك والريب ، وعن ابن عباس رضى الله عنه « لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحداً منهم » .

وقيل خوطب رسول الله ﴿ **كنت فى شك** ﴾ والمراد أمته ، أو من يقع فى شك ، فعليه بالرجوع إلى مصادر العلم من الكتب الإلهية ، ومناقشه أهل العلم ورجاله ، تالله لقد جاءك الحق الثابت من ربك الذى لاشك فيه أبدا . ولا ريب ، فلاتكونن من الممترين الشاكين ، والمراد دُم على ما أنت عليه ، ولا تكونَنّ من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا تعريض بالكفار المكذبين الخاسرين الضالين .

﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك** ﴾ وثبت فيهم حكمه وقضاؤه ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ أبداً ، وليس المعنى أن الله يمنعهم من الإيمان ، بل هم الذين يختارونه ويكسبونه ، والمراد أن من علم الله فيهم شرًا لابّد من حصوله ، لأن علم الله لا يتخلف .

إن هؤلاء الذين علم الله أنهم لا يؤمنون ، هم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية كونية أو علمية أو قرآنية لا يؤمنون ، حتى يروا العذاب الأليم ، وحينئذ لا ينفعهم إيمان ولا توبة .

متى يكون الإيمان صحيحاً

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات : ﴿ **الرجس** ﴾ : القذارة .. وأقبح الخبث المعنوى

الإيمان الذى ينفع صاحبه هو الإيمان وقت التكاليف ، أما إذا حصل فى وقت تسقط فيه التكاليف ، وذلك عند حشرجة الموت ، أو عند الغرق كما حصل لفرعون . أو عند نزول العذاب فلا ينفع نفساً ، والحالة هذه إيمانها ، فهلا كانت قرية من القرى التى أرسل فيها الأنبياء السابقون آمنت فى وقت ينفعها الإيمان ، أى وقت العمل ، لاوقت نزول العذاب ، واستحالة العمل.والمعنى : ما كانت قرية آمنت إلا قوم يونس آمنوا لما ذهب مغاضباً ، وحذرهم العذاب الشديد ، ورأوا تباشيره .

فلما آمنوا كشفنا عنهم العذاب ، ومنعنا عنهم الخزى والهلاك فى الدنيا : ومتعناهم لما آمنوا إلى انقضاء آجالهم المقدرة لهم .

﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً** ﴾ بأن يخلقهم وفيهم الاستعداد للإيمان فقط كالملائكة ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن شاءت مشيئته العالية لحكمة هو يعلمها ، أن يخلق الإنسان وفيه استعداد للخير والشر ، وللإيمان وللكفر ، وتركه بلا إلجاء وقسر ، بل جعل له الحرية الكاملة لاختيار أحد الطريقين ، بعد أن هداه النجدين ، وأبان له الأمرين .

﴿ **أفأنت تكره الناس** ﴾ على الإيمان ؟ لا إكراه فى الدين لمخلوق أبداً ، وإنما الذى يقدر على الإكراه هو الله سبحانه القادر على كل شىء .

﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ وإرادته ﴿ **ويجعل الرجس** ﴾ والهلاك ﴿ **على الذين لايعقلون** ﴾ ولا يختارون الخير ، ولايسلكون سبل الرشاد والسداد ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، لعلكم تذكرون .

إنذار وبشارة وحث على العلم

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ **أيام الذين خلوا** ﴾ : المراد وقائع الذين مضوا ، وحوادثهم .

يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظر والتفكير بعين البصيرة والاعتبار ﴿ **انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾ من آيات الله البينات ، انظروا ما فيها ، من نظام رتيب ، وترتيب عجيب ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[(١)]

انظر إليها بعين البصر والبصيرة ، تجد خالق هذا الكون على هذا النظام لا يمكن أن يتركه هملا ، ولم يخلقه عبثاً ، وهذا يدعو إلى التصديق بالرسل ، والإيمان بالقرآن والوحى .

ولكن ﴿ **ما تغنى الآيات** ﴾ القرآنية والآيات الكونية ﴿ **عن قوم لا يؤمنون** ﴾ بالله ورسله ، ولم يستخدموا عقولهم فيما خلقت من أجله ، وليس المراد بقوله تعالى فيما مضى ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾[(٢)] المجانين بل الذين لم يستخدموا العقول فيما خلقت له من المعرفة الصادقة ، والإيمان الكامل ، فهل ينتظر الذين لم يؤمنوا ولم يستفيدوا من الآيات إلا وقائع وحوادث كالتى نزلت بمن مضى من الأقوام السابقين ، وقد مر عليك جزء منها ، فى هذه السورة .

قل لهم إذا كان الأمر كذلك ﴿ **فانتظروا إنى معكم من المنتظرين** ﴾

وفى النهاية قد حكم الله حكماً لارادّ له ، إنه سينجى رسله والمؤمنين ، حكم بذلك وقدر وقال فى كتابه ﴿ **كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين** ﴾ ومن أصدق من الله قيلا ؟ ومن أوفى بعهده من الله ، وفى هذه الآية وجوب النظر فى الكون والبحث عما فيه للاعتبار ، وتربية الخشية من الله صاحبه ، والايمان به ، وحث على العلم والبحث فى الكون .

ولا غرابة ، فأنت إذا علمت أن أول ما نزل على نبيك محمد ﷺ قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾[(٣)] أدركت أن الإسلام دين علم وعمل ، وأن نبيك الأمى هو المعلم الأول .

---

(١) الآيات ٣٨ – ٤٠ من سورة يس .
(٢) الآية ١٠٠ من سورة يونس .
(٣) الآية الأولى من سورة العلق .

المبادىء العامة للدعوة الإسـلامية

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ **يتوفاكم** ﴾ : يقبض أرواحكم . ﴿ **حنيفا** ﴾ : مائلاً عن الشرك ما يتبعه ﴿ **بضر** ﴾ : من مرض أو ألم .

قل يا محمد للناس جميعاً قولاً مجملاً مختصراً ، تبين فيه الخطوط الرئيسية لرسالتك العامة الشاملة ﴿ **إن كنتم فى شك** ﴾ قليل ﴿ **من دينى** ﴾ ورسالتى فاعلموا أنى ﴿ **لا أعبد الذين تعبدون من دون الله** ﴾ أبداً كالأحجار والأصنام والأوثان والبشر فهؤلاء جميعاً لا ينفعون ، ولا يضرون أنفسهم ، فكيف يتصور منهم نفع أو ضر لغيرهم ؟ ﴿ **ولكن أعبد الله** ﴾ وحده لا أشرك به شيئاً سبحانه وتعالى ﴿ **الذى يتوفاكم** ﴾ إليه وإليه مرجعكم وجزاؤكم ، وعنده حسابكم الدقيق الذى أحصى كل شيء عدداً ﴿ **وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ الناجين من عذاب يوم القيامة .

وهذا الوصف بالإيمان يجمع جميع شعبه ونواحيه وأمرت بأن ﴿ **أقم وجهك** ﴾ خالصاً لله ولدينه مائلا عن الشرك بكل صوره . وأشكاله ، البسيطة والكبيرة ، ونهيت عن أن أكون من المشركين .

﴿ **ولاتدع** ﴾ يا محمد متجاوزاً الله سبحانه ﴿ **مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين** ﴾ لنفسك .

واعلم ان الله سبحانه وتعالى ﴿ **إن يمسسك بضر** ﴾ فى جسمك أو فى مالك بأى شكل كان ﴿ **فلا كاشف** ﴾ لهذا الألم والضر ﴿ **إلا هو** ﴾ .

وإن يرد بك خيراً فى دينك أو دنياك فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مانع لفضله ، سبحانه وتعالى عما يصفونه ، بل فضله يصيب به من يشاء من خلقه ، حسب حكمته وعلمه وهو الحكيم فى أمره ، العليم بخلقه ، وهو الغفور الرحيم .

خلاصـــة ما مضـى

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

هذه خاتمة المطاف فى تلك السورة العظيمة التى شرحت الأسس العامة للدين ، وبينت عقائد الإسلام التى ينكرها مشركو العرب من توحيد الله ، والوحى والرسالة والبعث والجزاء ، وما ينكرونه من صفات الله سبحانه ، وتكلمت عن القرآن الكريم وهدايته ، وما فيه من خير للبشرية جميعاً ، وكيف كانت الأمم السابقة ما حصل لها نتيجة كفر من كفر ، وإيمان من آمن ، هذا النداء مأمور به الرسول الأعظم ، هو للناس جميعاً على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، من سمع منهم بالقرآن ومن سيسمع فى المستقبل ، وهو إجمال عام لما فى السورة .

﴿ **قـل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربـكم** ﴾ على لسان رجل منكم أوحى إليه هذا الحق الثابت ، الذى لاشك فيه ، كتاب أحكمت آياته ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] ﴿ **فمن اهتدى فإنمـا يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل** ﴾ على نفسه ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ إن أنا إلا نذير بشير .

﴿ **واتبع** ﴾ يا محمد ﴿ **ما يوحى إليك من ربك** ﴾ فى هذا القرآن علماً وعملاً وتعليماً وحكماً وهدايه وإرشاداً ﴿ **واصبر** ﴾ كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم حتى يحكم الله بينك وبينهم ، ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ .

يا أيها الناس : إن الله الذى وضع نظاماً دقيقاً محكماً لهذا الكون وما فيه ، لم يختل ولن يختل ، لا يعقل أن يترك الانسان المكرم عنده ، المشرف من خلقه بلا نظام ولا قانون يحكمه ويهديه ، والله قد أنزل القرآن ، وفيه حكم الله وآياته وقوانينه الصالحة النافعة ، قوانين إلهية ، ودساتير ربانية ، صنعها صانع السماء والأرض ، وأوجدها موجد هذا الكون .

أفبعد هذا تتركونها إلى غيرها ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[2]

---

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

سورة هود

مقدمــة

عدد آياتها مائة وثلاث وعشرون ، وكلماتها ألف وتسعمائة وإحدى عشرة كلمة ، وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمسة .

قال صاحب البصائر :

وسميت سورة هود لاشتمالها على قصة هود .

المقصود الإجمالى من السورة : بيان حقيقة القرآن ، واطلاع الحق سبحانه على سرائر الخلق وضمائرهم ، وضمانه تعالى لأرزاق الحيوانات ، والإشارة إلى تخليق العرش ، وابتداء حاله ، وتفاوت أحوال الكفار وأقوالهم ، وتحدى النبى ﷺ العرب بالإتيان بمثل القرآن ، وذم طلاب الدنيا المعرضين عن العقبى ، ولعن الظالمين وطردهم ، وقصة أهل الكفر والإيمان

وتفصيل قصة نوح ، وذكر الطوفان ، وحديث هود ، وإهلاك عاد ، وقصة صالح وثمود ، وبشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بإسحاق ، وحديث لوط وإهلاك قومه ، وذكر شعيب ومناظرة قومه إياه .

والإشارة إلى قصة موسى وكون فرعون يكون مقدم قومه إلى جهنم .

وذكر جميع أحوال القيامة ، وتفصيل الفريقين والطريقين .

وأمر الرسول ﷺ بالاستقامة ، والتجنب من أهل الظلم والضلال ، والمحافظةعلى الصلوات الخمس والطهارة ، وذكر الرحمة فى اختلاف الأمة ، وبيان القصص وأنباء الرسل ، لتثبيت قلب النبى ﷺ ، والأمر بالتوكل على الله فى كل حال

المتشابهات :

قوله ﴿ **فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا** ﴾ بحذف النون والجمع ، وفى القصص ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم** ﴾ عدّت هذه الآية من المتشابه فى فصلين : أحدهما حذف النون من (فإلم) فى هذه السورة ، وإثباتها فى غيرها ، وهذامن فصل الخطاب، وذكر فى موضعه . والثانى جمع الخطاب ههنا ، وتوحيده فى القصص ، لأن مافى هذه السورة خطاب للكفار ، والفعل لمن استطعتم ، وما فى القصص خطاب للنبى ﷺ ، والفعل للكفار .

قوله ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾

قوله ﴿ **لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون** ﴾ وفى النحل ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ لأن هؤلاء صدوا

عن سبيل الله ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا فهم الآخرون ، يضاعف لهم العذاب ، وفى النحل صدوا فهم الخاسرون

قال الإمام (الإسكافى) : لأن ما قبلها فى هذه السورة (يبصرون ، يفترون) لا يعتمدان على ألف بينهما ، وفى النحل (الكافرون والغافلون) فللموافقة بين الفواصل ، جاء فى هذه السورة : الأخسرون وفى النحل : الخاسرون .

قوله ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال** ﴾ بالفاء وبعده :﴿ فقال الملأ ﴾بالفاء وهو القياس .

قوله : ﴿ **وأتانى رحمة من عنده** ﴾ وبعده ﴿ **وأتانى منه رحمة** ﴾ وبعدهما ﴿ **ورزقنى منه رزقاً حسنا** ﴾ لأن عنده ، وإن كان ظرفاً فهو اسم فذكر فى الأولى بالصريح والثانية والثالثة بالكناية لتقدم ذكره ، فلما كنى عنه قدم لأن الكناية يتقدم عليها الاسم الظاهر ، نحو : ضرب زيد عمراً فإن كنيت عن عمرو قدمته نحو عمرو ضربه زيد ، وكذلك زيد أعطانى درهما من ماله ، فإن كنيت عن المال قلت : المال زيد أعطانى منه درهماً .

قال الإمام : لما وقع ﴿ **آتانى رحمة** ﴾ فى جواب كلام فيه ثلاثه أفعال كلها متعد إلى مفعولين ليس بينهما حائل بجار ومجرور ، وهو قوله : ﴿ **مانراك إلا بشراً مثلنا ومانراك اتبعك** ﴾ و ﴿ **نظنكم كاذبين** ﴾ أجرى الجواب مجراه ، فجمع بين المفعولين من غير حائل ، وأما الثانى فقد وقع فى جواب كلام قد حيل بينهما بجار ومجرور ، وهو قوله ﴿ **قد كنت فينا مرجوا** ﴾ لأن خبر كان بمنزلة المفعول ، لذلك جعل فى الجواب بين المفعولين بالجار والمجرور

قوله ﴿ **أأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله** ﴾ فى قصة نوح وفى غيرها ﴿ **أجراً إن أجرى** ﴾ لأن فى قصة نوح وقع بعدها ﴿ **خزائن** ﴾ ولفظ المال للخزائن أليق .

قوله ﴿ **ولا أقول إنى ملك** ﴾ وفى الأنعام ﴿ **ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ لأن (ما) فى الأنعام آخر الكلام (بدأ) فيه بالخطاب ، وختم به وليس (ما) فى هذه السورة آخر الكلام بل آخره ﴿ **تزدرى أعينكم** ﴾ فبدأ بالخطاب ، وختم به فى السورتين .

قوله ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً** ﴾ فى قصة هود وشعيب بالواو ، وفى قصة صالح ولوط : ﴿**فلما** ﴾ بالفاء لأن العذاب فى قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد ، فإن فى قصة هود ﴿ **فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم** ﴾ وفى قصة شعيب ﴿ **سوف تعلمون** ﴾ والتخويف قارنه التسويف ، فجاء بالواو والمهلة ، وفى قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد ، فإن فى قصة صالح ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ وفى قصة لوط : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب .

قوله ﴿ **وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة** ﴾ وفى قصة موسى ﴿ **فى هذه لعنة** ﴾ لأنه لما ذكر فى الآية الأولى الصفة والموصوف اقتصر فى الثانية على الموصوف للعلم به ، والاكتفاء بما فيه .

قوله ﴿ **إن ربى قريب مجيب** ﴾ وبعده ﴿ **إن ربى رحيم ودود** ﴾ لموافقة الفواصل ، ومثله ﴿ **لحليم أوّاه منيب** ﴾ وفى التوبة ﴿ لأوّاه حليم ﴾ للرَّوى فى السورتين .

قوله : ﴿ **وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ وفى إبراهيم ﴿ **إنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ لأن فى هذه السورة جاء على الأصل (وتدعونا) خطاب مفرد ، وفى إبراهيم لما وقع بعده (تدعوننا) بنونين لأنه خطاب جمع حذف النون استثقالاً للجمع بين النونات ،ولأن فى سورة إبراهيم اقترن بضمير قد غير ما قبله بحذف الحركة ، وهو الضمير المرفوع فى قوله ﴿ **كفرنا** ﴾ فغيرت قبله فى ﴿ **إنا** ﴾ بحذف النون وفى هود اقترن بضمير لم يغير ما قبله ، وهو الضمير المنصوب ، والضمير المجرور ، فى قوله ﴿ **فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾ فصح كما صح قوله ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** ﴾ ثم قال ﴿ **وأخذت الذين ظلموا الصيحة** ﴾ التذكير والتأنيث حسنان لكن التذكير أخف فى الأولى وفى الأخرى وافق ما بعدها ، وهو ﴿ **كما بعدت ثمود** ﴾ .

قال : الإمام : لما جاءت فى قصة شعيب مرة الرجفة ، ومرة الظلة، ومرة الصيحة ، ازداد التأنيث حسنا .

قوله : ﴿ **فى ديارهم** ﴾ فى موضعين فى هذه السورة فحسب ، لأنه اتصل بالصيحة وكانت من السماء فازدادت على الرجفة ، لأنها الزلزلة وهى تختص بجزء من الأرض فجمعت مع الصيحة ، وأفردت مع الرجفة .

قوله : ﴿ **إن ثموداً** ﴾ بالتنوين ذكر فى المتشابه ، وثمود من الثُّمد وهو الماء القليل ، جعل اسم فعله ، فهو منصرف من وجه ، وممنوع من وجه ، فعرفوه فى حالة النصب لأنه أخف أحوال الاسم ، ومنعوه فى حالة الرفع لأنه أثقل أحوال الاسم ، وجاء الوجهان فى الجر ، لأنه واسطة من الخفة والثقل .

قوله ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم** ﴾ وفى القصص ﴿ **مهلك القرى** ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى نفى الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل فى النفى ، لأن هذه اللام لام الجحود ولا يظهر بعدها أن ولا يقع بعدهاالمصدر، ويختص بكان ولم يكن ، ومعناه مافعلت فيما مضى ولا أفعل فى الحال ، ولا أفعل فى المستقبل (وكان) الغاية فى النفى وفى القصص لم يكن صريح ظلم فاكتفى بذكر اسم الفاعل وهو لأحد الأزمنة غير معينة ثم نفاه .

قوله ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من اليل ولا يلتفت منكم أحد** ﴾

استثنى فى هذه السورة من الأهل قوله ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ولم يستثن فى الحجر اكتفاء بما قبله وهو قوله ﴿ **إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته** ﴾ فهذا الاستثناء الذى انفردت به سورة الحجر ، قام مقام الاستثناء من قوله ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من اليل** ﴾ . وزاد فى الحجر (واتبع أدبارهم) لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم ، ولا يخفى عليه حالهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

روى أبو يعلى بسنده عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شيبك ؟ قال « شيبتني هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت »[(١)]

المفـردات : ﴿ **آلر** ﴾ : حروف هجائية تنطق بأسمائها فيقال (ألف ـــ لام را) وتشير إلى إعجاز القرآن العظيم ، وقد يكون المراد بها التنبيه . ﴿ **أحكمت** ﴾ إحكام البناء : كالقصر والحصن : إتقانه حتى لا يقع فيه خلل . ﴿ **فصلت** ﴾ تفصيل : العقد بالفرائد : جعل خرزه أو مرجانه بلون بين كل خرزتين من لون آخر . ﴿ **متاعا** ﴾ المتاع : كل ما ينتفع به فى المعيشة وحاجة البيوت . ﴿ **أجل مسمى** ﴾ الأجل المسمى : هو العمر المقدّر . ﴿ **يثنون** ﴾ ثنى الشيء : عطف بعضه على بعض فطواه وإثناء الثوب إطواؤه وثناه عنه : لواه وحوله وثناه عليه أطبقه وطواه ليخفيه فيه وثنى عنانه عنى : تحول وأعرض ﴿ **ليستخفوا** ﴾ الاستخفاء : محاولة الخفاء واستغشى الثوب تغطى به كما قال حكاية عن نوح عليه السلام ﴿ **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** ﴾[(٢)] .

قوله تعالى ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ :

قال مجاهد وقتادة : أى هى محكمة فى لفظها ، مفصلة فى معناها .

وجاء فى تفسير المراغى : هذا كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظر والتأليف ، واضحة المعانى ، لا تقبل شكا ولا تأويلا ولا تبديلا ، كأنها الحصن المنيع الذى لا يتطرق إليه خلل ، وجعلت فصولا متفرقة ، فى سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ ، وجميع ما أنزل له الكتاب من الحكم والفوائد ، فكأنها العقد المفصل بالفرائد ، ولا عجب فقد أنزلت من لدن حكيم يقدر حاجة عباده ، ويعيطهم ما فيه الخير لهم ، خبير بعواقب ذاك ومصادره وموارده . أهـ .

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٥٦:٦) .
(٢) الآية ٧ من سورة نوح .

فقد جمع الله تعالى لهذا الكتاب العزيز الإحكام والتفصيل ، فهو لفظ حامل ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، ويكفى هذا الكتاب شرفاً وقدراً أن الله تعالى قد توكل بحفظه فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير** ﴾ .

وهذا هو الأصل فى رسالات السماء ، توحيد الله تعالى ربا والهاً وصفات وأسماء ، ولقد نص الكتاب العزيز على ذلك فقال سبحانه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾[٢] وقال : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٣] وقال : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ﴾[٤] وقال ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره** ﴾ ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ﴾[٥]. ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ﴾[٦] وقال سبحانه ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلّه إلا أنا فاتقون ﴾[٧].

قوله جل شأنه : ﴿ **إننى لكم منه نذير وبشير** ﴾

نذير بالعذاب ، وبشير بالجنة .

جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يامعشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ألستم مصدقى ، فقالوا : ما جربنا عليك كذباً قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد »[٨].

قوله تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ .

وكما أمرتكم بتوحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبادة ذاتا وصفاتا وأفعالا ، فإننى أمركم بالاستغفار والتوبة ، والاستغفار طلب المغفرة ، والتوبة إقلاع عن الذنب ، وعزم على عدم العود ، وندم على ما فات ، وأداء الفرائض ، والوفاء بالحقوق .

قال تعالى فى شأن نبيه نوح ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[٩].

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٤) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة هود .
(٥) الآية ٦١ من سورة هود .
(٦) الآية ٨٤ من سورة هود .
(٧) الآية ٢ من سورة النحل .
(٨) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ١١١:١) و (سورة ٢٦:٢) . ومسلم فى الإيمان (٣٥٥) .
(٩) الآيات ١٠ – ١٢ من سورة نوح .

وفى شأن هود ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾[١]

وفى شأن صالح ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[٢]

وفى شأن شعيب ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾[٣]

وها هو ذا خاتم الأنبياء والمرسلين يقول لهم ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** ﴾ وكان يقول « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله واستغفره فى اليوم مائة مرة ».[٤]

وليس الجزاء مقصورا على الدنيا وحدها ، بل إن الله تعالى جمع بين السعادتين للمستغفرين التائبين ، فقال : ﴿ **يمتعكم متاعاً حسنا** ﴾ أى فى الدنيا قال تعالى ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ﴾[٥] وقال جل شأنه ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوّئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٦] وقال : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٧] وقال ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾[٨].

وفى هذا الموضع يقول سبحانه : ﴿ **يمتعكم متاعاً حسناً** ﴾ فيحييكم حياة طيبة آمنة مطمئنة ، يأتيكم فيها الرزق رغداً من كل مكان ، أما فى الآخرة فسيؤتى كل ذى فضل فضله ، حيث يعطى على الحسنة عشر أمثالها ويزيد ، ويجزى على السيئة مثلها ويغفر .

وبعد ذلك يقرن الوعيد بالوعد حتى يقوم الميزان بالقسط بين الترهيب والترغيب فيقول ﴿ **وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ :

أى فإن أعرضتم وانصرفتم ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾[٩]، ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾[١٠].

فيا له من يوم ما أطوله ، ومن خطب ما أهوله ، ومن جبار ما أعدله ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن

---

(١) الآية ٥٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٦١ من سورة هود .
(٣) الآية ٩٠ من سورة هود .
(٤) أخرجه البخارى فى الدعوات (٣) . ومسلم فى الذكر (٤٢) . وأبو داود فى الديات (٣) . وابن ماجه فى الأدب (٥٧) والإمام أحمد فى (٤ :٢١١،٢٦٠،٢٦١،٤١٠) وفى (٥ :٤١١) .
(٥) الآية ٣٠ من سورة النحل .
(٦) الآية ٤١ من سورة النحل .
(٧) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٨) الآية ١٢٢ من سورة النحل .
(٩) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة المزمل .
(١٠) الآية ٢٩ من سورة الإنسان .

زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[١].

إنه يوم كبير الخطر ، لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ثم يؤكد سبحانه أنه لا مفر من لقائه ، فيقول ﴿ إليه **مرجعكم وهو على كل شىء قدير** ﴾ كان ذلك على ربك حتماً مقضياً ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[٢] ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٣].

﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[٤]

والله تعالى هو القدير على بعثكم وحشركم . ونشركم وحسابكم . وجزائكم ، لا يعجزه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، لا يشغله سائل ، ولا ينقصه نائل .

قوله تعالى ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .

أى إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم ، وينكسون رءوسهم ، كأنهم يحاولون طىّ صدورهم على بطونهم ، حين سماع القرآن ليستخفوا منه ﷺ حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رءوسهم .

روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبى ﷺ ثنى صدره كيلا يراه أحد .

﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ :

أى إن ثنى صدورهم ، وتنكيس رءوسهم ، ليستخفوا من الداعى لهم إلى توحيد ربهم ، لا يغنى عنهم شيئا ، فإن ربهم يعلم ما يسرون ليلاً حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم ، ثم ما يعلنون نهاراً .

﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ : أى إنه تعالى عليم بأسرار الصدور ، وخواطر القلوب ، فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون فى صدوركم الشك فى شىء من توحيده ، أو أمره أو نهيه .

قال زهير بن أبى سلمى :

فلا تكتمن الله ما فى قلوبكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٨ من سورة الجمعة .
(٤) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة الأنعام .